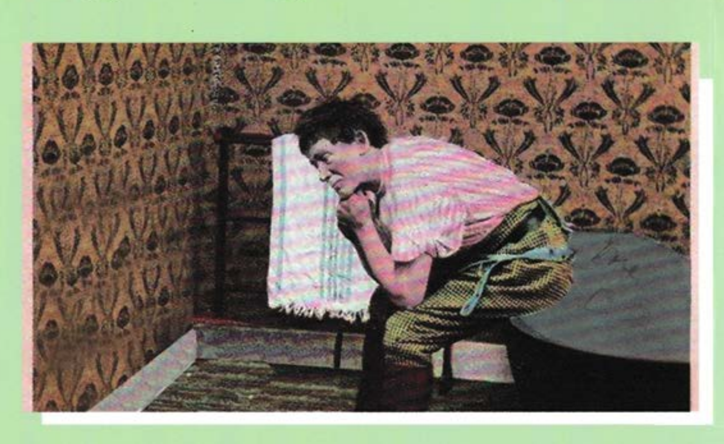
بيتر هاندكه

مكتبة ٩٧٢

عن الخلاء والسكون



نوبل
2019

ترجمة: د. رضوى إمام



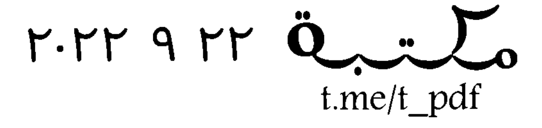
مكتبة | ٩٧٢
سُر مَن قرأ

عن الخلاء والسكون

بيتر هاندكه

د. رضوى إمام/ أستاذ مساعد بقسم اللغة الألمانية، كلية الألسن، جامعة عين شمس، تخصص الدراسات الأدبية والأدب المقارن.

عن الخلاء والسكون
طبعة 2021
رقم الايـــــداع: 2021/15978
الترقيم الدولي: 978-977-821-211-2



الناشر
محمد البعلي

إخراج فني
علاء النويهي

This is full translation of the book "Versuch über den Stillen Ort" by Peter Handke © Suhrkamp Verlag Frankfurt am Main 1989.

Die Übersetzung dieses Werkes wurde durch das österreichische Bundesministerium für Kunst, Kultur, öffentlichen Dienst und Sport gefördert.

تم دعم ترجمة هذا العمل من قبل وزارة الثقافة والفنون والعمل العام والرياضة النمساوية.


SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET
sefsafapr@gmail.com

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
49 شارع المخزن- العمرانية- الجيزة- مصر

بيتر هاندكه

عن الخلاء والسكون

ترجمة

د. رضوى إمام



بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشئون الفنية

هاندكه، بيتر، ١٩٤٢-

عن الخلاء والسكون/ بيتر هاندكه، ترجمة: رضوى إمام

الجيزة، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠٢١

٦٤ ص، ٢٠ سم

تدمك ٢-٢١١-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨

١- القصص النمساوية

أ- إمام، رضوى (مترجم)

ب- العنوان

٨٣٣

رقم الإيداع: ٢٠٢١/١٥٩٧٨

منذ زمن بعيد، قرأت الترجمة الألمانية لرواية «النجوم تنظر إلى أسفل»، بقلم الأديب «آرتشيبالد جوزيف كرونين»[1]، إن لم تخنّي الذاكرة. كان الكتاب سميكًا، ولكنه جذبني إليه، وأشعل حماسي لقراءته، لا بسبب الكاتب أو القصة، فأنا بالكاد أتذكر الأحداث، ولكن ما نقشته تلك الرواية داخل أعماقي -بخلاف النجوم التي تنظر إلى أسفل- هو التناوب في السرد بين أصحاب المنجم الأثرياء، والأُسر المعدمة، التي تعمل هناك.

وبعدها بفترة، شاهدت فيلم «كم كان واديّ مخضرًّا» للمخرج «جون فورد»[2]، والسيناريست «ريتشارد ليويلين»[3]. وعندما تلاحقت الوجوه والأماكن أمام عينيّ، بدا لي، وكأنني أشاهد النسخة السينمائية من رواية «كرونين».

تركَتْ ملحمة النجوم التي تنظر إلى أسفل أثرًا دفينًا في نفسي، ظل يلاحقني حتى يومنا هذا، وهو أيضًا منبع هذه الخواطر، التي أنقل لكم فيها تجاربي مع الخلاء والسكون. سآخذكم في رحلة

1- طبيب وروائي اسكتلندي ولد عام 1896 وتوفي في 1981. من أشهر رواياته القلعة والنجوم تنظر إلى أسفل. (الناشر)

2- مخرج سينمائي أمريكي من أصل أيرلندي. اشتهر بإخراجه لأفلام الغرب الأمريكي. حطم الأرقام القياسية بحصوله على أربع جوائز أوسكار. (الناشر)

3- كاتب وسيناريست وصحفي وروائي بريطاني، ولد عام 1906 وتوفي في 1983. (الناشر)

عبر أهم الأماكن الساكنة التي عايشتها في حياتي، وستستوقفني محطة في أكثر الأماكن التي نخلو فيها بأنفسنا؛ بيوت الخلاء!

فالمشهد الذي يجتاح أفكاري يتعلق ببطل الفيلم، الذي يعتاد الذهاب إلى الحمَّام دون الحاجة إلى ذلك. فالجلوس بين أفراد عائلته، يُثقل همه ويفرِط ألمه؛ يحبس نفسه داخل الحمَّام هربًا من سماعهم، فيلبث هناك فترة طويلة.

فالفيلم يحكي لنا عن ابن الأغنياء، الذي يجد ملاذه ومفره في ذلك المكان الساكن؛ في بيت الخلاء، بعيدًا عن صالونات القصر وحجراته. وهناك، لا يفعل شيئًا، سوى أن ينصت إلى صوت السكون. بطلنا الصغير لا يدرك في عزلته وخلوته هذه السبب وراء تسمية الرواية بهذا الاسم؛ إن النجوم تنظر إليه.. فبيت الخلاء لا توجد به أسقف، إنه يطل مباشرة على السماء.

وأنا أيضًا لديّ في جعبتي بعض القصص حول الأماكن الساكنة بشكل عام، وبيوت الخلاء بشكل خاص. إنها قصصٌ مختلفة، تتعدد فيها جوانب السرد، ويتنوع فيها الفضاء المكاني. سأحكيها الآن، فهي فريدة من نوعها، لا تتوازى ولا تتباين مع أي من القصص التي يمكن أن تسمعها في حياتك!

لم ألتفت إلى بيوت الخلاء من منظور جديد، إلا وأنا على العتبة الفاصلة بين الطفولة والمراهقة. فاليوم، بينما أجلس هنا في

مكتبي متأملًا طفولتي، أجدني أستحضر بعض الحمَّامات في برلين الشرقية، وفي منطقة «بانكوف»، وفي بيت جدي الريفي في جنوب «كارينثيا» بسلوفينيا. لا أستحضر سوى صور قليلة، ولكني لا أجد نفسي في أي منها.. لا أجد طفلًا، أو شخصًا مؤثرًا.. لا أجد «الأنا» الفاعلة في المكان والمتفاعلة معه.. لا أجدني بشحمي ولحمي.. إنها صور بلا كيان.

في بيتنا الريفي، الذي كان فوق سهل منحدر في منتصف قرية «ستارا فاس»، كان يوجد حمَّام في الطابق الأول؛ حمَّام تقليدي، إذ تجد في متناول اليد رزمًا سميكة من الجرائد المقصوصة بتساوٍ، مثقوبة ومشبوكة بخيط ومسمار على لوح خشبي بجوار المرحاض؛ قُصاصات متنوعة، تطغى عليها اللغة السلوفينية، فهي قصاصات من جريدة «المرسال» الأسبوعية، التي واظب جدي على شرائها. ومن فجوة المقعد يتدلى ممر رأسي طويل للغاية، أو ربما هُيِّئ لي ذلك وأنا طفل صغير.

كان ذلك الحمَّام في نهاية ممر خشبي طويل يؤدي إلى الحظيرة، وكأنه جزء فاصل أو زاوية بينهما. لم يكن لافتًا للنظر، بل يسهل إغفاله، بالكاد يمكن تمييزه كمكان في حد ذاته، يكاد لا يضاهي مساحة حجرة صغيرة. لم يكن باب الحمَّام ظاهرًا جليًّا، فلونه الرمادي امتزج مع رمادية الممر، حتى بدا وكأنه حائط خشبي بارز بعض الشيء، أو ركن خاص بأدوات النجارة، التي

يستخدمها جدي.

على أي حال، نادرًا ما استقبل هذا الحمَّام زوارًا، اللهم إلا زيارة عابرة مرة واحدة في العام، من مندوب شركة التأمين. أشك أنه وضع مكانًا كهذا في حسبانه فيما يتعلق بحالات اندلاع الحريق أو الصواعق الكهربائية. فذلك الحمَّام الريفي لم يكن معنيًّا بالحياة اليومية والمناسبات.

ولكني لاحظت في تلك الحجرة الصغيرة شيئًا مميزًا. إذ تسلل إليها النور من مصدرين مختلفين، مع العلم أنه لم تكن توجد قوابس للضوء، ولا أعلم كيف تسنى لعائلتي المتشعبة أن تجد طريقها ليلًا عبر ذلك الممر المظلم. هل استخدموا أنوار الغاز؟ أو الكشافات؟ أو الشموع؟ أم كانوا يتحسسون ما حولهم؟

كان المصدر الأول يشع الضوء في أرجاء المكان.

هل كانت شقوق أخشاب الحجرة؟

كلا، فخبرة جدي في النجارة لم تسمح بوجود أي تشققات. كان النور يخترق الخشب ليسطع منه، وكأنه مُصفًّى، بعد أن تسلل عبر أغصان الشجر الدائرية، ربما لأنها تنكمش بعد جفافها، فتتشكل بعض الثقوب الصغيرة؛ في حجم ثقوب الدبوس.

ضوء غريب، غير مباشر، لم يشع مثله في بقية أرجاء البيت. أقول «غير مباشر»، لأنه لم توجد أي نوافذ على الإطلاق، ولذلك،

تشعر به أكثر، بعد أن تجد نفسك محاصرًا به، في ذلك المكان الساكن.



تجد نفسك؟

أقصد «أنا».. كنت أجد نفسي «أنا».. هناك.. آنذاك.

ماذا عن المصدر الثاني للضوء؟

انتبهت إليه عندما نظرت إلى أسفل، عبر ممر المرحاض الطويل. إنه ضوء يسطع شعاعه إلى أعلى، حتى يصل إليّ. ولكن بصري لم يمتد سوى إلى منتصف الممر. كلا، لم يصل حتى إلى ذلك العمق، بل بالكاد ما يقارب مسافة ذراع واحد. أرجو منكم ألا تستحضروا مع القراءة أي روائح نتنة، فأنا لا أتذكر أي روائح، ولن أتطرق إليها.

اختلف بريق ذلك الشعاع عن الضوء الأول، الذي حاصرني من أعلى. وبينما تأملته، ازدادت حِدَّته. أبرز ذلك البريق هيئة الممر، وأوضح شكله الدائري.. كأنها هندسة حية؛ طبيعية.

لماذا أستحضر الآن تلك الفكاهة التي قالتها لي أمي ذات يوم؟ إنها تحكي عن طفل جاء إلى قسيس القرية بسلة مليئة بثمار الكمثرى اللامعة، ثم ناوله إياها قائلًا: «أيها البابا، أرسل لك تحية والديّ بهذه الكمثرى.. قطفناها من شجرة المرحاض».

على أي حال، فعلى عكس بطلنا الصغير في رواية «النجوم تنظر إلى أسفل»، لم ألجأ أبدًا إلى بيت الخلاء كمهرب في أيام طفولتي. فعندما أستحضر الحمَّامات، التي تعود إلى تلك الفترة، أجد دوري ينحصر في إطار المتفرج؛ مجرد عين مشاهدة، ومراقبة. لم أعايش تلك الأماكن بوصفها خلوة، أو حتى سرية. فالأصوات، أيًّا كان مصدرها، لم تعنِ لي شيئًا. أما الروائح، فلا أتذكرها.

عين؟ محطة انتقالية؟

شخصية هامشية، بلا جسد، غير مرئية.. خلاء.. مراقبة.. آنذاك.

هأنذا ولأول مرة أستحضر نفسي كشخص محوري.. كيان ذي شحم ولحم.. فاعل في الأحداث ومتفاعل معها. أرى نفسي في أحد بيوت الخلاء، بعيدًا عن قريتي. كان ذلك في أثناء السنوات التي قضيتها في المدرسة الداخلية. وأكثر ما يميز تلك القصة هو ما حدث هناك فور وصولي، في ليلتي الأولى. دعوني أقصها عليكم: في أحد أوائل أيام شهر سبتمبر من خمسينيات القرن الماضي، اشتد تساقط الأمطار، وحل الظلام مبكرًا. وقبل أول عشاء جماعي لما قارب الثلاثمئة تلميذ، تعيَّن علينا جميعًا أن نتوجه إلى حجرة الطعام العملاقة. لم يسبق لي أن تناولت الطعام في قاعة كهذه، بل لم يسبق لي أن وطأت بقدمي داخل قاعة كهذه، اللهم إلا صالات الألعاب الرياضية. كان علينا جميعًا

أن نقف ونردد الصلوات خلف مدرس الدين.

استغرقت الصلاة فترة طويلة، أو ربما هُيِّئ لي ذلك، إذ إنني ومنذ لحظة وصولي إلى المدرسة في فترة الظهيرة، كنت في أمس الحاجة إلى التبوُّل. ولكني لم أجد المراحيض، بل لم أنبش عنها في ذلك المبنى الفسيح، متعدد الاتجاهات، الذي كان قصرًا آنذاك.

ألديكم أسئلة؟ كيف كانت الأوضاع هناك؟

حسنًا إذًا، وقف المستجدون الواردون من أقصى أنحاء البلاد يرددون الصلاة، جملة بعد جملة، خلف الأبواب المغلقة، بينما اشتدت دقات أمطار المساء الباردة على طرقات الحصى في الفناء، أو ربما تناثر بعض الرذاذ من نافورة القصر.

سمحوا لنا بالجلوس على المقاعد بمحاذاة موائد الطعام الطويلة. كلا! بل ظللنا واقفين لبعض الوقت، نردد الصلاة، حتى جلسنا أخيرًا. وفجأة، وبلا أي مقدمات، شعرت بطوفان يفيض فوق البلاط، الذي كان مرصعًا بأحجار جميلة، انعكست عليها أنوار الثريا. وإذا بذلك الطوفان يتنقل بين سيقان المقاعد على مرأى الجميع، ثم يتجاوز المسافات ويواصل حركته بين سيقان الموائد، فتبتل هي الأخرى تمامًا مثلما ابتلت ساقي، بدءًا من منطقة حجر سروالي الجديد (الذي اشتريته احتفاءً بتلك المرحلة

الجديدة من حياتي)، وصولًا إلى باطن قدمي، من داخل حذائي (الجديد أيضًا).

هكذا ظللت جالسًا، حتى نهاية الوجبة، أتظاهر وكأنني أتناول طعامي. وحالما خرجت من باب القاعة، تركت الحشود على الفور، وركضت بعيدًا، إلى أبعد مدى، حتى وصلت إلى ركن مظلم في الفناء.

أجدني في ذاكرتي واقفًا.. أخيرًا.. في العتمة، متكئًا على عمود، وفي أوج شعوري بالاغتراب، على الرغم من اعتيادي لجميع أشكال الاغتراب منذ الصغر. لم أجد مفرًّا لا إلى الخارج ولا إلى الداخل؛ لم أشأ أن أترك المدرسة، ولم أرغب في العودة إلى الآخرين، إلى أقراني، في حجرات المذاكرة، ثم النوم.

وفجأة، سمع ذلك التلميذ المستجد صوتًا يدوي من خلفه. لم يكن انهمار المطر، بل صرير باب مفتوح. وجدْتُ حمَّامًا بعيدًا، خفيًّا؛ لعله مخصص للزائرين، أو البستانيين، أو العمال.. لعله دائمًا مغلق بالترباس، ولكن تدابير القدر جعلته متاحًا لي في تلك الليلة بالذات.

دخلته، ولكني لم أشعل النور، بل لم أبحث عن قابس النور من الأساس. ظللت واقفًا في قلب العتمة، يحاصرني صوت قطرات المياه، التي تسربت من صندوق الطرد. مكثت هناك فترة طويلة،

على الرغم من أنني -مع الأسف- كنت قد قضيت حاجتي في مكان آخر. ولكن الحمَّام صار لي في تلك اللحظة ملاذًا لتلبية احتياج آخر. ومكوثي هناك، لما قارب الساعة، في أيامي الأولى بتلك المدرسة الداخلية، أشبع حاجتي، حتى ولو بشكل مؤقت.

ولأول مرة صرت أنا، بشخصي، معنيًّا بذلك الخلاء. ولأول مرة استرقت السمع إلى هذا المكان، حتى اعتدت الإنصات إليه فيما بعد. لم تتسلل إلى أذنيّ أصوات قطرات المياه فقط، بل أيضًا أصواتٌ مكتومة، نقلت لي صياح زملائي وعويلهم من داخل المبنى، فوصل إليّ طنينٌ بسيطٌ ومألوف. وكأن أصوات قطرات المياه في ذلك المكان الداكن والساكن شكلت النغمة الرئيسة، بينما انسابت بقية الألحان في خلفيتها.

وهكذا، صار واردًا أن تتحول حمَّامات المدرسة -ليس فقط هذا الحمَّام بالتحديد- إلى ملاجئ، حتى وإن لم ألجأ إليها كثيرًا، إذ كنت أكثر ترددًا على كرسي الاعتراف بالكنيسة.

ولكن لماذا أستحضر الآن غرفة الاعتراف وكأنها تجربة مشابهة؟

مشابهة.. كيف؟

لم تكن لديّ «معاصٍ» كي أعترف بها للقسيس الخفي، ولكن المكان كان يأخذني بعيدًا عن زملائي الجالسين على مقاعد الكنيسة، بل عن الجميع بشكل عام، فتتشكل الأحداث بمنأى عن

كل شيء. فغرفة الاعتراف منعزلة، في آخر جزء من الكنيسة، وهو ما أجده موقعًا مناسبًا.

وبقلب متحرر، أو على الأقل أكثر تحررًا، أعود إلى زملائي وإلى المناسك. تغمرني البهجة، ولكن لأسباب بعيدة كل البعد عن تحرر ضميري من «المعاصي»، بعد جلوسي في تلك الغرفة الداكنة أمام أذن القسيس، التي لا يظهر منه سواها.

لا يوجد وجه شبه بين هذين المكانين: بيت الخلاء، وغرفة الاعتراف، بل إنهما يختلفان عن بعضهما كل الاختلاف. هذه هي الأفكار التي تحوم في رأسي الآن، على قدر متساوٍ من الغموض والإلحاح (نعم، هكذا تطوف الأفكار في رأسي، وهكذا أتمنى أن تظل).

القيام من بين الصفوف.. من بين زملائي.. من بين الحشود.. ثم الرحيل.. وحدي.. إلى الخلف.. حيث حجرة الاعتراف.. لا بسبب اضطراري أو حاجتي إلى ذلك.. بل من فرط شعوري بالملل. لا شك أن الملل يمكن أن يتحول إلى احتياج. ولكني في فترة المراهقة، لم أكن قد تعرفت على هذا النوع من الملل، الذي يقترن بالمعاناة.

على الرغم من شغفي بالتعلم، كثيرًا ما كنت أتمنى أن يصيبني بعض الإعياء، كي أصبح طريحًا لفراش عيادة المدرسة، بعيدًا عن

قاعات المحاضرات والمكاتب. لم أتمنَّ لنفسي المرض، بل فقط بعض الإعياء البسيط؛ أن أصاب بارتفاع في درجة الحرارة مثلًا، خاصة أنهم كانوا يسمحون لنا بالمبيت داخل العيادة، حتى بعد انخفاض الحرارة، إلى أن نتماثل للشفاء التام. وفي تلك الأيام المعدودة، لا ننشغل سوى بالأشكال الهندسية، التي تزركش الملاءات البيضاء الناعمة.

كثيرًا ما حاولت أن أفرك ميزان الحرارة بيديّ، كما نصحني بعض زملائي، كي يشير المؤشر إلى ارتفاع في درجة الحرارة. ولكني أبدًا لم أفلح.. لطالما كنت بارعًا في أساليب الغش أثناء اللعب والمواقف الفكاهية، أما في الامتحانات، فدائمًا ما كنت أُضبط متلبسًا، حتى وإن كان المتهم الحقيقي هو زميلي من أمامي، أو من جواري، أو من خلفي.

وفي إحدى المرات، حالفني الحظ، وسمحوا لي بقضاء بضعة أيام في العيادة. كنت المريض الوحيد داخل الغرفة. اعتنت بي إحدى الممرضات الراهبات، بينما استلقيت على سريري، ومن أمامي نافذة مرتفعة وكبيرة، تطل على فضاء واسع. اختلف ذلك المشهد تمامًا عن المشهد الذي تراءى لنا من خلف النوافذ الصغيرة في حجرات الدراسة، أو في غرف المذاكرة، حيث تبعد المكاتب عن جميع النوافذ.

كنت أتأمل فضاءً واسعًا من الغابات والمساحات الخضراء،

حيثما يتسكع البقر؛ مشهدٌ آلفه منذ الصغر، ولكنه كان جديدًا في الوقت نفسه. لم يفصل فناء المدرسة بينه وبين نافذتي في تلك العيادة الصغيرة، على عكس سائر الحجرات الأخرى داخل القصر، التي تطل على الفناء، مثل غرف المذاكرة، والطعام، والنوم.

ظللت ماكثًا في تلك الغرفة الصغيرة، إلى أن استيقظت ذات يوم، وارتديت ملابسي، كي أعود مرة أخرى إلى الحياة.. إلى عالم الأصحاء. تركت ملل الملاءات البيضاء.. تركت البقر، الذي يمضغ الأعشاب على مرأى النافذة.. وتركت قمم الأشجار المتراصة في الأفق. لم يجتاحني الملل أبدًا أثناء إقامتي في تلك العيادة الصغيرة، ولا حتى فيما بعد، عندما مكثت بضعة أيام في غرفة بإحدى المستشفيات. كان صدري مشبوكًا بأسلاك كهربائية، وكانت نافذتي تطل على مساحة خضراء واسعة. وإن كنت قد شعرت ببعض الملل هناك، فذاكرتي لا تسترجعه على الإطلاق.

لعلني في تلك الفترة من العزلة افتقدت هذا الزميل أو ذاك المعلم، ولكني لم أتوجه إلى أي منهم بعدما غادرت العيادة. كان لا بد أن أثبت حضوري في إحدى المحاضرات التي انعقدت في الطابق الأخير من القصر، ولكني أيضًا لم أذهب إلى هناك. وجدتني أسير بين ممرات القصر، كي أختبئ –أو بالأحرى كي أخطف نفسي– داخل أحد الحمَّامات، التي كانت تظل خاوية

في الصباح الباكر. كان لا يزال يوجد وقت طويل على فترة الاستراحة. حالفني الحظ، ومكثت وحدي هناك لفترة طويلة دون إزعاج. شعرت باختلاف الطقس بين العيادة الدافئة، وذلك الملاذ البارد. ومع تدفق أصوات قطرات المياه، ازداد شعوري بالبرودة.

أو ربما ازداد شعوري بالبرودة بسبب انخفاض درجة حرارتي أكثر من اللازم بعد مرور أيام الحمى. ومع ارتعاشي وارتجافي، قررت أن أمكث في بيت الخلاء، آمِلًا أن تتسلل الحمى إلى جسدي مرة أخرى. حبست نفسي داخل الكابينة الأقرب إلى النافذة المفتوحة على مصراعيها. ظللت ماكثًا حتى بعد انتهاء فترتي الراحة: الأولى، ثم الثانية. لم يبحث عني أحد طوال تلك الفترة. حرصت على ألا أطقطق أسناني. «هيا أيها الطقس، قم بمهمتك، صِبني بالحمى». ولكنها لم تعد إليّ، حتى مضى ذلك الصباح البارد.

مررت بتجربة مشابهة بعدما انتقلت إلى مدرسة حكومية. كنت كعادتي اجتماعيًّا وودودًا مع الجميع، وكأنني لم أكن في مدرسة أخرى، ولا حتى في خيالي. شعرت بالألفة تجاه زملائي في مدرستي الجديدة. كونت مجموعة من الأصدقاء، شعرت معهم وكأنني واحدٌ منهم منذ البداية. كنت «ديك البرابر»، الذي تحاصره الفتيات، ويحوز على إعجابهن. كنت حقًّا مميزًا؛ أقصر الصبيان قامة.

بعد انتهاء سنتي الثانوية، قرر أصدقائي أن يشدوا الرحال إلى يوغوسلافيا واليونان.. جميعهم.. بالكامل.. ولكن من دوني. أرادوا جميعًا أن أنضم إليهم، ولكني لم أشأ أن أرافقهم.. انسحبت..

انسحبت بحجة أن والدتي لا تملك ما يكفي من المال، على الرغم من أنها الحقيقة، ولكنها كانت حجة. لم يكن لديّ جواز سفر، لأنني لم أنتمِ إلى أي وطن بشكل رسمي. أكد لي المسؤولون أنه من السهل تدارك الأمر، ولكني لم أشرع في الإجراءات اللازمة؛ فبعد أن اقترح زملائي تجميع المبلغ المطلوب لسفري، لم يتركوا أمامي سوى حجة جواز السفر.

وحتى يومنا هذا، لا أعلم السر وراء تهربي منهم، على الرغم من محبتي لهم.

وفي يوم صيفي بديع في مطلع الستينيات، وجدت نفسي وحيدًا في قريتي، بعيدًا عن المدرسة، وعن أصدقائي، عاطلًا، خاملًا، فارغًا، بعد فترة ثرية بصحبة الآخرين.

ولهذا، قررت أنا أيضًا أن أشد الرحال إلى وجهتي الخاصة.. وحدي. وضبت أمتعتي في حقيبة من القماش، وكأن رحلتي ستطول، ولكنها في واقع الأمر كانت قصيرة، ووجهتي كانت قريبة.

سلكت جهتي غربًا، في اتجاه «كارينثيا»، ولكني لم أجتز

حدودها الغربية. في اليوم الأول، وصلت إلى مدينة «فيلاخ»، على بعد ستين ميلًا من ناحية الغرب. لا أتذكر كيف ولا أين قضيت ليلتي هناك. وفي اليوم الثاني، اجتزت مسافة أقصر، حيث وصلت إلى بلدة «رادينتهاين» بجوار بحيرة «ميل شتات». وهناك، زرت عائلة أحد أصدقاء المدرسة، وقضيت ليلتي معهم. لا أتذكر أين أو كيف خلدت إلى النوم، على السرير؟ أو ربما الكنبة؟

ولكني أتذكر أين وكيف قضيت ليلتي التالية؛ كان ذلك في مدينة «شبيتال» المطلة على نهر «دراو»، على بعد مسافة قصيرة من «رادينتهاين». قضيت ليلتي في حمَّام محطة القطار بعد أن نفدت نقودي، أو بالأحرى لم تكن تكفي لسداد ثمن مبيت الشباب.

لم تنغلق محطة القطار، ما مكنني من التسكع داخل أرجاء المبنى حتى منتصف الليل، أو ربما بعد ذلك أيضًا. كنا في فصل الصيف، ولكن الليالي -على الأقل في تلك الفترة- كانت تميل إلى البرودة. تترسخ في ذاكرتي تلك الأجواء النادرة، فقد كانت حقًّا مميزة؛ أجواءٌ تجذبك خارج البيوت والمباني، كي تظل جالسًا في الهواء الطلق.. مع الآخرين.. حيث السكون.. في رحاب أصوات الطبيعة، فهي أيضًا جزء من ذلك السكون. وإن لم يفُح عبق زهور العسل في ليلة صيفية كهذه، تكفيك نسمات الهواء العليل، كي تنقل لك عطر زهور العسل من ولايات الجنوب، وحوض

المسيسيبي، في العوالم الكامنة في روايات «ويليام فوكنر»[4].

ولكن تلك الليلة الصيفية، التي قضيتها في محطة «شبيتال»، لم تكن إحدى تلك الليالي. فقبل حلول منتصف الليل بفترة طويلة، اشتدت برودة الطقس، حتى تسللت إلى داخل المبنى الذي كان مفتوحًا من جميع الزوايا والنواحي. في البداية، أخذت أتمشى قليلًا خارج المحطة حول الميدان، بمحاذاة الحديقة، ثم إلى أسفل، حيث برك المياه، في منطقة لم تصل إليها أنوار المحطة. غمرتني تلك التسلية ببعض الدفء، وشتتتني من الإحساس بالتعب. صرت أراقب القطارات على الأرصفة المختلفة، خاصة قطارات المسافات الطويلة، المتجهة إلى أثينا، وبلجراد، وصوفيا، وبوخاريست، وميونيخ، وكولونيا، وكوبنهاجن، وأوستند؛ فجميعها توقفت هنا، في محطتي.

ومع مرور الوقت، قلَّت القطارات. وفي لحظة ما، سيطر عليّ التعب، ولم أدرِ ماذا أفعل...

هأنذا مرة أخرى أحبس نفسي داخل إحدى كبائن حمَّام المحطة، الذي كان في ركن بعيد داخل المبنى. فتحت الباب بعملة شلن، وما إن وطأت بقدمي داخل الحمَّام، حتى اجتاحني

4- واحد من أشهر الكتاب في الأدب الأمريكي. قام بكتابة الرواية، والقصة القصيرة، والشعر، والنصوص السينمائية، والمسرح، والمقالات. حاز على جائزة نوبل للآداب عام 1949، وجائزة بوليتزر مرتين عامي 1954 و1962. ومن أشهر أعماله رواية (الصخب والعنف). (الناشر)

الشعور بالأمان والسلام. استلقيت على البلاط، واستعنت بحقيبتي القماش كأنها وسادة.

بالطبع كانت الكابينة صغيرة للغاية، لدرجة أنه كان من المستحيل أن أتمطى. لذا، ما كان مني سوى أن كوَّرت جسدي في شكل نصف دائري حول ساق المرحاض، بينما كان رأسي ملاصقًا للحائط. أضاء النور الأبيض ذلك الحمَّام الفسيح. ظل هكذا طوال الليل، ولكنه كان خافتًا بعض الشيء داخل الكابينة. فقد تسلل إليها عبر فتحتي الباب من أعلى ومن أسفل. أخرجت بعض الملابس من حقيبتي كي أغطي نفسي. حاولت أن أستكمل قراءة رواية «آل بودنبروك» للأديب «توماس مان»[5]. فقد حبِست أنفاسي على مشارف نهايتها.

كان من المستحيل أن أواصل القراءة، وأنا مُكوَّر هكذا حول ساق المرحاض. عاد إليّ الشعور بالتعب، بعد أن أرجأه قليلًا شعوري بالاضطراب بسبب مكوثي في مكان كهذا بغرض النوم (أشعر الآن بينما أسطر هذه السطور بثقل غريب فوق رأسي وجفنيّ، فأنا الآن أقاوم رغبتي في النوم، تمامًا مثلما فعلت ذلك اليوم. لم أقدر على فتح عينيّ، ولكني أيضًا لم أستطع أن أخلد إلى

5- أديب ألماني كبير حاصل على جائزة نوبل في الأدب عام 1929. من أشهر أعماله الموت في البندقية، الجبل السحري. (الناشر)

النوم، بينما سيطرت فكرة «السرير» على عقلي).

على الرغم من سداد رسوم الدخول، شعرت أنني أخالف القانون. لم يكن لي الحق أن أستلقي هكذا على الأرض داخل حمَّام محطة القطار، ناهيكم عن النوم هناك. وعلى الرغم من سيطرة هذا الشعور عليّ، إلا أنني لم أخرج من الحمَّام، فلم يكن لي ملاذٌ سواه. فقد صار في تلك اللحظة ملكًا لي، حيث انعكست ظلال وجهي على البلاط الصدفي. مكثت هناك حتى بزوغ الفجر، مع الشحم، أو أيًّا ما كانت تلك المادة اللزجة حول حواف البلاط، التي ألصقته بالأرض.. مكثت هناك مع خصلات الشعر المتناثرة، أو كتل الغبار، أو أيًّا ما كانت تلك العفرة الملتصقة بالشحم.. مكثت هناك مع الذباب، أو العناكب، أو الناموس، أو أيًّا ما كانت تلك الحشرات النائمة على حوائط الكابينة. نعم، كانت نائمة.

وفي ظل هذه الأوضاع المخالفة للقانون، سمعت أصوات العالم الخارجي تتسلل إليّ في خلوتي، في ذلك المكان الساكن، تصدح في طبلة أذني، دون أن تخِف حدَّتها. كان منطقيًّا أن أسمع أصوات قطارات البضائع، وهي تمر بالمحطة سريعًا، فالمواعيد الليلية مخصصة لها. ولكن كانت هناك أصوات أخرى، تدوي في أذني ذلك الشاب المستلقي في الحمَّام، والخارج عن القانون؛ إنه نعيق البوم؛ ناداه من بعيد، من ناحية برك المياه، في طيات ساعات السكون الطويلة: «ها هو ذا! هناك! أمسكوا به! اقبضوا

عليه! أوقفوه!».

حتى الحفلات الموسيقية لصراصير الليل، التي دوت من حشائش السكة الحديد، أثارت فزعي، ومنعتني من النوم، بعد أن كنت على مشارفه. انتبهَت أذني لعرير الصراصير، مثلما التفتت إلى أخفت عصفة ريح. تلك الساعات الساكنة من الليل لم تترك مجالًا للسكون. ومع ذلك، لم أنسَق إلى أي مكان آخر، بل أردت بكل جوارحي أن أظل هكذا، حول ساق المرحاض، في وضع نصف دائري، حتى بزوغ الفجر، الذي كان يأتي مبكرًا في أوائل شهر يوليو.

قرأت ذات مرة، أنه عندما يدوي زئير الحيوانات المفترسة في الهواء الطلق، في قلب الليل، يرتمي من يشعرون بالخطر إلى الأرض، ليحتموا بها، ويستلقوا عليها معًا في وضع دائري.

ولكن ماذا إن كنت وحيدًا؟

وحدي شكَّلت أنا الدائرة، شبه الدائرة، حتى وإن كان الموقف أقل خطورة. فمكاني بالتأكيد أفضل من مكان هؤلاء، الذين يستلقون على الأرض اليابسة الصخرية، في نفس هذا الوقت، تحت سماء الجنوب.. يتكوَّرون في حقائب النوم، ممسكين أيادي بعضهم بعضًا، بينما ينامون.. أو ربما بلا نوم.

بالتأكيد لديهم حكايات يقصُّونها، ولكن لا يمكن مقارنة

حكاياتهم بحكايتي هنا.. لا اليوم، ولا الغد، ولا حتى بعد عام. فلا يوجد مجال للمقارنة من الأساس. أي شخص سيتخيلني، أو يتخيل جسدي ملفوفًا هكذا حول ساق المرحاض، سيهز رأسه مستنكرًا.

مضت عدة أعوام، حتى حكيت عن ليلتي هذه، لا شفاهة، بل عن طريق الكتابة. تحوَّلَت ليلتي من تلقاء نفسها إلى سطور، عندما كتبت أولى رواياتي، وأنا على مشارف التخرج: راوٍ فقد بصره، ينتظر أخاه حتى يعود من الحرب، ولكن بلا جدوى. يتخيله مع حقيبته داخل حمَّام إحدى محطات القطار، بينما ينعكس بياض مقعد المرحاض أمامه على المرآة.

وبعد عشرين عامًا، كتبت روايتي: «التكرار»، والتي تدور أحداثها حول الراوي والبطل «فيليب كوبال»، الذي يسرد الأحداث سردًا ذاتيًّا من منظور الأنا؛ فبعد انتهاء الدراسة، يشد رحاله وحيدًا، بينما يسافر جميع أصدقائه إلى مدينتي "دلفي" و"إبيداوروس" في اليونان.

يقضي «فيليب» ليلته الأولى مع حقيبته على الأرض، ولكنها ليست أرض أحد الحمَّامات العمومية، بل في ركن صغير داخل نفق لا أعلم كم ميلًا يمتد، بدءًا من "روزنباخ، كارينثيا" وصولًا إلى «جيسينيس، يوغوسلافيا". وبين الحين والآخر تعصف بجواره قطارات البضائع، ليقضي ليلة أشبه بالمغامرة، في ذلك

النفق المظلم. وفي اليوم التالي، يبدأ "فيليب كوبال" رحلته سيرًا على الأقدام؛ رحلة ملحمية، عبر سلوفينيا، التي كانت لا تزال جزءًا من يوغوسلافيا في ذلك الوقت، لكي يبحث –مرة أخرى دون جدوى– عن أخيه الذي فقده في الحرب. وإذا بالاختلافات في الألسنة والأمكنة تفتح عينيه على آفاق جديدة.

أما أنا، فبعد انقضاء ليلتي في حمَّام محطة «شبيتال»، تمشيت قليلًا، ثم قلت لنفسي: «لا شيء يضاهي الوطن، سأعود إلى قريتي".

أما عن سلوفينيا، ويوغوسلافيا، و"جيسينيس"، فلم أزرها إلا بعد مرور عدة أعوام. وبعدها بفترة أطول، تسنى لي زيارة إقليم "كارست"، الذي لولاه، لما ظهرت رواية «التكرار» إلى النور.

لم يكن بيت الخلاء ملاذًا لي في أثناء سنوات الدراسة بالجامعة، إذ حلت محله أماكن أخرى: مثل أي مخزن صغير، أو محطة ترام، أو حافلة خالية من البشر طوال الليل، أو خندق شبه مهدوم.. أو ربما بعض المناطق، خارج نطاق المعنى المتعارف عليه، مثل الموضع الخالي أسفل رصيف الشحن والتفريغ عند معمل الألبان. كنت أرى في ذلك الفضاء ملاذًا محتملًا. كنت أرى أيضًا أن البِنية الهرمية للوحات الإعلانات أو الدعايا الانتخابية، تُشكِّل بداخلها فضاءً، يصلح أن يكون محلًّا للإقامة. وكان يبدو لي أكثر دفئًا وألفة من العالم الخارجي.

وأحيانًا أخرى، كانت تنتابني مثل تلك اللحظات من الأمان والسلام بمجرد النظر إلى الأرض، عندما أجول ببصري صوب قضبان الترام، والرمال، وأوراق الشجر المتناثرة. فيتحول المكان إلى سكون، على الرغم من رنين أجراس الترام واحتكاك عجلاته. وفي خضم هذا الخلاء، بينما أقف على القضبان، التي تخلو من كل شيء عدا الرمال وأوراق الشجر المتساقطة، أجد نفسي في قلب الحدث، وبعيدًا عنه في الوقت نفسه.. لم أرغب أن أتوارى بعيدًا مثل أوراق الشجر الذابلة على الحواف.

من الغريب أيضًا، أنني أستحضر الأماكن الخالية في قريتي وكأنها رمزٌ لها. نعم، فمع مرور الزمان وتباعد المكان، تتملك مني ذكراها أكثر فأكثر. أجدني أستحضر عربات المواشي، وهي تسير على الأرض، من فوق ألواح خشبية متحركة، مرصوفة بتساوٍ، تتسع لأطول الثيران، وأعرض الأبقار، ينتقل إليها وزن المواشي بانتظام، بفضل آلية التوازن الكامنة بداخلها. أتذكرها، وأستحضر كيف كنت أقف عليها وأنا طفل صغير، بل عندما كبرت أيضًا. كنت أهتز مع اهتزازها، إلى أن أجد نفسي ثابتًا عليها تمامًا، بينما تستمر هي في الرجيج لبعض الوقت.. كأنها أرجوحة، وكأنني أتأرجح.

غني عن الذكر أنه في سنوات الجامعة، التي قضيتها في المدينة، كنت أشتاق إلى الأماكن الساكنة في قريتي: مثل أكشاك

الألبان في الشوارع، وأكوام القش في المراعي، والأكواخ الخشبية الصغيرة التي تتراءى في الأفق في قلب الحقول.. كلها كانت تشع بالسكون، الذي كنت في أمس الحاجة إليه بين الحين والآخر.

ولكني لم أعانِ من الأشواق. كلا، لم أنسَق أبدًا إلى ذلك الشعور. فأكشاك الألبان، حتى وإن انغلقت، أو صدأت، أو انهدمت.. وأكوام القش، حتى وإن تعفَّنت.. ودكاكين الحقول، حتى وإن انكسرت بداخلها خزائن العصير، وتحجَّر خُبزها، فانصرفت عنه الفئران، وجفَّت لحومها، فصارت كالجلد المدبوغ.. تلك الأماكن الساكنة كلها، ظلت موجودة معي بالفعل، حتى وإن لم تعد ملموسة أومحسوسة كما كانت آنذاك.. فقد احتفظت بها في جعبتي.. لم تكن هشة، بل ظلت مقاوِمة.. قادرة على مقاوَمة مرور الزمان، واختلاف المكان.

غريب أنه يمكنك -دون قصد أو سابق تخطيط- أن تستخرج الأماكن الساكنة من مكنوناتك، في خضم شعورك بالاضطراب، الذي يفتك بعقولنا أحيانًا. ربما تتشكل تلك الأماكن وتحتويك، بينما تقرأ نصًّا أدبيًّا، طويلًا كان أو قصيرًا. حدث لي ذلك ذات يوم وأنا في كافيتيريا الجامعة؛ لا لأنني كنت أقرأ كتابًا، ولكن لأنني تذكرت القراءة.

كانت الكافيتيريا تظل مزدحمة حتى الساعات الأولى من المساء، وكثيرًا لم أجد ملاذًا سواها. في مساء أحد الأيام، بينما

جلست هناك في ركن بعيدًا عن التلفاز، ظهر على الشاشة وجه الأديب «ويليام فوكنر» في النشرة الإخبارية، التي بالكاد لم أسمع منها شيئًا، بسبب الصخب الذي عمَّ أرجاء المكان. بدا وجهه نبيلًا. لا أدري كيف علمت على الفور عندما تراءى أمامي، أنه رحل عن عالمنا في ذلك اليوم. مات ذلك الكاتب، الذي طالما كان أبًا بالنسبة لي ولكل قُرَّائه. وفجأة، تغمدني سكون هائل مفعم بالأنين، تفشى بداخلي وحاصرني من كل اتجاه. ظل مرافقًا لي وأنا على متن دراجتي، حتى وصلت إلى مسكني في حافة المدينة. شعرت وكأن السكون تفشى وانتشر في سائر الأنحاء. أعتقد أن ذلك كان في أحد أيام يوليو من عام 1962.

من البديهي أن ننساق إلى القراءة في الأماكن الخالية. ولكن من الغريب، أنها تطلق العنان لحركات الجسد العفوية. ففي رحابها نتمهَّل، ونتقلَّب، ونسير عكس الاتجاه، ونحبس أنفاسنا. أتذكر الآن بينما أكتب سطوري هذه، إحدى الحركات التي استحضرتها أمام عينيّ، عندما قرأت رواية «أيها الملاك، انظر في اتجاه بيتك» للأديب «توماس فولف»[6]. استوقفتني شخصية "بن": الأخ الأكبر لبطل الرواية. فكلما سئم "بن" من الحديث أو العراك مع أفراد عائلته، يتجه إلى أي زاوية خالية في البيت، ثم يميل برأسه إلى الخلف، كي يتكئ على الحائط. وبعدها، ينظر في اتجاه كتفه

6- كاتب أمريكي اكتسب شهرته بفضل روايته التي تناولت سيرته الذاتية. ولد عام 1900. وتوفي في 1938. (الناشر)

مُحدِّثًا "ملاكه" قائلًا: "استمع إليّ"، ثم يحكي له عن كل شيء.

وحتى يومنا هذا، كثيرًا ما أجدني أحذو حذو «بن» في مثل تلك المواقف. فأقصد مكانًا خاليًا، ثم أنظر في اتجاه كتفي -حيث لا يوجد أي شيء- وأردد تلك الجملة في سرِّي، ثم أتبعها بالهراءات التي يفترض أن يستمع إليها "ملاكي".

المغزى من هذه القصة هو أن الأماكن الساكنة، على اختلافها وتعدد أشكالها، طالما كانت بالنسبة لي بمثابة الملجأ، أو الملاذ، أو المخبأ، أو المأوى، أو الحجاب، أو الصومعة. وتطبُّعها بتلك الصفات هو ما دفعني إلى كتابة هذه الخواطر بكل وضوح وشفافية.

هناك أيضًا بعض الأماكن الخالية، التي جذبتني إليها، على الرغم من أنها لم تكن ساكنة تمامًا، مثل الكنائس والمقابر الخاوية، التي كنت أقصدها كثيرًا في فترة الدراسة بالجامعة.

أستحضر مع الكنائس الخالية تنهيدة عذبة، تعبيرًا عن الارتياح، أو نسمات البخار المريحة، التي تفوح بداخلها. لطالما تغمدني فيها شعورٌ أقرب إلى التحرر، قبل أن أعود مرة أخرى إلى ضوضاء الشارع في الخارج.

أما عن المقابر الخالية، فدائمًا ما أدهشتني الزخارف والزينة التي تُنصَب فيها، احتفاءً بعيد القديسيين، ويوم ذكرى الأموات.

كنت أستشعر فيها أرواحًا هائمة، تلوح لي، ثم تعصف بجواري، بينما أنظر إلى الخلاء من حولي. أتخيل جسرًا متأرجحًا أسفل قدمي، وتتراءى لي صورة كوخ صغير، مصحوبة بصورة بوت مطاطي.. لعله لجدي، أو لشخص آخر.

وبعد مرور عدة سنوات، زرت أول مقبرة، يمكن أن أضفي عليها صفة «السكون»؛ كانت في اليابان، وكان في قلبها حمَّام عمومي كبير.

والآن عودة من الأماكن الخالية والساكنة في العموم، إلى بيوت الخلاء. فقد انتبهت الآن، بينما أكتب هذه السطور، أنني في سنوات الجامعة، التي قضيتها في المدينة، وجدت بالفعل ملاذًا في أحد بيوت الخلاء، بعكس ما ادعيت أعلاه. ولكنه لم يكن الحمَّام العمومي في محطة المدينة، فإنني أستحضره بشيء من الغصة، بسبب الشواذ، الذين تسكعوا بداخله، أو وقفوا أمام المبولة، ينظرون في اتجاه أكتافهم، ولكن ليس مثل «بن» من رواية «أيها الملاك، انظر في اتجاه بيتك».

إنني أتحدث هنا عن حمَّام الجامعة. فعلى مدار دراستي الجامعية، التي استغرقت أربع سنوات، أستحضر قصتين في ذلك الحمَّام؛ وقعتا في المساء، بينما كانت الممرات، وقاعات المحاضرات خاوية تمامًا. أتذكر أنني لم أكن على سجيَّتي في مسكني في حافة المدينة. كنت أقطن بحجرة داخل فيلا صغيرة،

حالت برودتها ومساحتها الضيقة دون راحتي. لذا كنت أجلس في الكافيتيريا تارة، وأركب الترام تارة أخرى، كي أتجول على متنه عبر أنحاء المدينة، حتى أصل إلى المحطة الأخيرة، ثم أعود إلى محطتي مرة أخرى. وإذا ما سئمت من هذين الخيارين، أظل داخل مبنى الجامعة لأطول فترة ممكنة، كي أذاكر أو أقرأ داخل إحدى قاعات المحاضرات، التي كانت لا تزال مفتوحة. أتذكر كيف كنت أجلس هناك تحت الضوء الخافت. أما الحمَّام، فكان مضيئًا، وواسعًا، ودافئًا. أحيانًا كنت أقصده كي أغسل شعري أسفل صنبور المياه. دائمًا ما كنت في عجالة، فقد كان يمكن لأي شخص أن يهُب إليّ في زيارة مباغتة، وهو ما أجده مفاجأة غير سارة بالنسبة له أكثر مني (وهنا، تجدر الإشارة إلى أنني كثيرًا ما كنت أجد حمَّام الفيلا مغلقًا).

في مساء أحد الأيام، بينما كنت أغسل شعري أسفل الصنبور، فوجئت بزيارة، لا من أحد الطلاب، بل من أحد الأساتذة. وما زاد الطين بلة، أنه كان يُدرِّس لي في العام المنصرم. كانت قد حدثت بيننا بعض المناوشات في سياق المادة العلمية، ربما مرة أو مرتين (يستحضر مسامعي الآن تذمر زملائي بسبب وقاحتي تجاه من هو أعلى مني مقامًا).

على أي حال، تنحَّى الأستاذ جانبًا، وحرص على ألا أنتبه إليه. حتى قبل ذلك بعام، عندما كنت ألقاه داخل قاعة المحاضرات،

وأنظر إليه من أعلى المدرج، دائمًا ما كنت أشعر أنه شخص بارد. ها هو الآن يتفحَّصني، ويقيِّمني مرة أخرى. إنه يجسِّد محض البرودة السلطوية في أبهى صورها. حتى مع لقائنا في بيت الخلاء، الذي بدا بريئًا ونزيهًا، شعرت أنه يتفحصني بنظرة دونية.. شعرت أن أستاذي يضطهدني، وكأنني لست جديرًا بالانتباه.. فصار عدُوِّي.

عندما دخل الحمَّام في ذلك المساء، على الأرجح بعدما خرج من مكتبه الكائن في الجهة المقابلة، تصرَّف وكأنني لست موجودًا من الأساس. تجاهلني وتجاهل رأسي الغاطس في الحوض، تحت مياه الصنبور، التي تدفقت حتى بللت البلاط من تحتي. غسل يديه، ولكنه لم يستعن بالصنبور الأقرب إليّ، ولم يستخدم أبعد صنبور في الزاوية. فكان على مقربة مني، ولكن أيضًا على بُعد مسافة معقولة. أخذ يغسل يديه لفترة طويلة؛ إصبعًا فإصبعًا، بينما أخرجْت منشفتي من الحقيبة، وجففت بها شعري. لم ينبس أي منا ببنت شفة، ولم نتبادل النظرات. وبعدها شرع في غسل وجهه. استخدم أطراف أصابعه أولًا، ثم انحنى فجأة في اتجاه الحوض، وأخذ يصُب الماء على جبينه ووجنتيه مرة بعد مرة، مستخدمًا كلتا يديه، وكأنه جاء من أقصى صحاري الغرب سيرًا. وبعدها، أخذ يصفف شعره الرطب، وسوالفه التي شابت، ثم خلع رابطة عنقه الداكنة والحريرية، التي يرتديها في المحاضرات، واستبدلها بأخرى، مُزركشة بالورود ومصنوعة من القماش

الرقيق، بعد أن أخذها من جيب البدلة. وأخيرًا، أخذ يقص الشعر الزائد من أذنيه وأنفه، ثم نتف بالملقاط بعض الشعيرات السميكة من حاجبيه. وبعدها، رحل أخيرًا. هكذا مضى، دون نظرة أو كلمة واحدة. لعله ذهب ليلاقي امرأة ما في كافيه "تاليا". ولعلها صفَّت سيارتها في محل انتظار السيارات أمام الكافيه، وظلَّت بداخلها أمام المرآة، كي تضع مسحوق البودرة فوق أنفها، وتلعق أحمر الشفاة، الذي استقر فوق أسنانها.

منذ ذلك اليوم، استمر أستاذي في تجاهل النظر إليّ متى وأينما التقينا. ولكنه لم يعد عدوًّا لي، فمنذ واقعة بيت الخلاء، صرنا نتشارك سرًّا صغيرًا. كُلِّي يقين، أننا إذا التقينا اليوم، بعد مرور قرابة النصف قرن، سنتبادل الأحاديث والحكايات لأول مرة، لا عن الدراسة وأوقاتها، بل عن تلك اللحظات المباغتة، التي قضيناها معًا في بيت الخلاء.

أما عن القصة الثانية، فهي تدور في الحمَّام نفسه. إذ توجهت إليه كي أغسل شعري، في وقت متأخر من المساء، بعد أن عمَّ الليل. ظننت أنه لا يوجد أحد سواي في المبنى بأسره. وبعد أن دفعت باب الحمَّام، فوجئت بشخص آخر يغسل شعره أسفل الصنبور، الذي اعتدت استخدامه. نظر إليّ من أسفل إلى أعلى، ثم حياني. كان غريبًا بعض الشيء، ولكنه كان ودودًا، وتصرف بأريحية، كأن شيئًا لم يكن. لم أعرفه، ولم أقابله من قبل، لا في

الجامعة، ولا في المخزن (حيث كنت أعمل في قسم الشحن قُبَيْل الأعياد)، ولا في أي مكان آخر. ولكن ذلك الرجل الغريب، لم يكن غريبًا عليّ. ربما تكمن غرابته في الألفة التي استشعرتها منه.. كلا، لم تكن ألفة، بل نوع من الهوْل والفزع.

فعلى الرغم من أنه خلع قميصه، وهو شيء لا يعنيني، وعلى الرغم من أنه بدا في نفس عمر والدي، إلا أنني شعرت من النظرة الأولى، أنني أنظر إلى نفسي.. نعم، رأيت نفسي واقفًا أمام هذا الحوض.

هناك، في بيت الخلاء، التقيت بقريني. فمنذ طفولتي وأنا على يقين من وجوده في مكان ما خلف الأفق البعيد. كنت أعلم أن طريقه سيتقاطع مع طريقي ذات يوم، أو ربما يتقاطع طريقي أنا مع طريقه. وفجأة، دون سابق إنذار، ظهر أمامي في منتصف الليل، تحت ذلك الضوء الساطع. وجدته منحنيًا، بينما تنساب خصلات شعره الطويلة الرطبة فوق وجهه. كانت حمّالاته منفكة، وتتدلى خلف ركبتيه.. جاء هو أيضًا بمنشفته الخاصة، ليجفف شعره، ولكنها كانت كبيرة ومنقوشة بالمربعات، مختلفة عن منشفتي.

أما أنا، فقد شرعت أيضًا في غسيل شعري، على مسافة حوضين أو ثلاثة منه. تصرفنا بأريحية، دون تبادل الكلمات. كنا في حمَّامنا، بجوار بعضنا. وبعدها، بدأ في حلاقة ذقنه، باستخدام

الفرشاة والرغوة. أما أنا، فأخذت أفرك شعري لبعض الوقت، وأراقب قريني الذي ظهر أمامي من زاوية جانبية. لم أختلس نظراتي إليه، بل أظهرتها بوضوح. راقبته بعفوية وأريحية، بينما غمرتني الأفكار داخل رأسي.

هذا الشخص هو أنا. هل سأكون مثله ذات يوم؟

من كنتُ بالأمس؟

لم أكن وحيدًا أو منبوذًا كما ظننت. ربما كنت غريبًا بعض الشيء، نعم، ولكن هناك ما هو أكثر غرابة.

من كنتُ أيضًا؟ عضوًا ببعثة استكشافية؟

كلا، بل كنت وحدي، في رحلة استكشافية خاصة. ولتوِّي عدت منها، بعد مشقَّة، وعناء، وصراع مرير، كي أنعش نفسي في المجتمع المتحضر.. مؤقتًا، قبل رحلتي التالية.

ومن أنا أيضًا؟

مع اللمحة الأولى، ظننته شخصًا مضطربًا. ومع اللمحة الثانية، اتضح لي أنه شخص طبيعي، بل ربما الشخص الطبيعي الوحيد بين الآلاف.. هناك تسعمئة وتسعة وتسعون مجنونًا، يتبيَّنون مع اللمحة الأولى.

ومن كنتُ أيضًا؟



دعوني أكون شخصًا آخر، دعوني ألعب دور شخصٍ آخر: رائد، أو هارب، أو حكم مباراة كرة قدم، أو على الأقل حكمَ الراية.

كيف كنتُ وأنا أتأمل قريني في بيت الخلاء، تحت ضوء النيون الأبيض؟

لم أكن مميزًا.. ولكني لم أكن بغيضًا.. ربما لا يُميزني شيءٌ بعينه.. ولكني أيضًا لا أفتقر إلى شيء بعينه.. لست نجمًا عالميًّا.. وإن كنت أحمق، فأنا أحمق من القرية، لا من المدينة.

كيف كنت أيضًا؟ كيف كنت؟ كيف كنت؟ ماذا تعرف عني؟ انظر إليّ! كيف كنت؟ انظر إليّ! انظر إليّ!

مضى عقدان من الزمان، قبل أن أجد نفسي مرة أخرى في بيت خلاء جديرٍ بالذكر. كان ذلك في مطلع الثمانينيات، في قلب إحدى المقابر اليابانية.

ولكن قبل أن أحكي عنه، أريد أن أترك لكم بعض اللمحات الخاطفة عن بيوت الخلاء: في بعض الأفلام تجد الدم ينساب داخل كبائن المرحاض وخارجها. وفي أرض الواقع، تجد من يريد أن يقضي حاجته، دون أن يتسنى له فتح باب الحمَّام. كما تجد من

يدفس رأسه داخل المرحاض كي يتقيَّأ، ومن حُسن حظه، أنه لا يعلق به بسبب كتفيه العريضتين. تراه مقلوبًا هكذا طوال الليل، يكاد يختنق. أتذكر إلى يومنا هذا صوت امرأة عجوز، كانت تعمل في تنظيف مراحيض إحدى محطات الترام. كنت أترنح في الليل مع أحد الأصدقاء، حاملًا زجاجة ويسكي فارغة، وفي حالة سكر شديد. وإذا بصوتها يصيح قائلًا: «ياللهوْل، كم هو شنيع!».

إن كانت خواطري هذه فيلمًا سينمائيًّا، لاكتسب إيقاعه من مراحيض القطارات، التي ترى عبر حُفَرِها قضبان السكة الحديد، تتقاطع بعضها مع بعض.. وحمَّامات الطائرات، التي ترى عبر نوافذها مناظر خلابة، بغض النظر عن الاضطرابات الهوائية، ولون الزبرجد الغريب.

عودة إلى اليابان.. وقع شيء من الالتباس عندما هُيِّئ لي، أن بيت الخلاء، الذي أعنيه، كان في قلب إحدى المقابر هناك. فقبل أن أشرع في الكتابة اليوم، وجدت بالصدفة كتاب «في مديح الظل» للأديب الياباني «تانيزاكي»[7]. فتحت الكتاب عند الموضع الذي يصف فيه الراوي حمَّامات المعابد اليابانية، إذ أثنى على معمارها الهندسي، والسكون الذي „تجد فيه الروح المعنى الحقيقي للسلام». فعندما قرأت تلك السطور، تذكرت أن الحمَّام

7- جونيتشيرو تانازاكي من أهم الروائيين والقاصين في الأدب الياباني المعاصر. ولد عام 1886، وتوفي في 1965. (الناشر)

الذي أقصده لم يكن في المقابر، بل في أحد المعابد.

لا أتذكر ذلك المعبد جيدًا. أتذكر فقط سربًا من العصافير يحلِّق عاليًا حول السطح الخشبي للمعبد. امتزجت رمادية تلك الطيور الصغيرة مع رمادية اللوح الخشبي، فلم أتمكن من تمييزها سوى من خلال حراكها، وهي ترفرف بأجنحتها، وكأنها تلعب لعبة الاختباء بين ثقوب الأخشاب. أستحضر تلك الصورة جيدًا، لأنني تأملتها من داخل حمَّام المعبد.

كان ذلك المعبد في مدينة „نارا"، محل إقامة القيصر الياباني في الماضي، والتي زرتها بعد مرور أسبوعين أو ثلاثة على وصولي إلى اليابان.

خُضتُ العديد من الصولات والجولات في أنحاء مدينة „طوكيو". لا أنكر أنني أستعذب التجوال، ولكنه كثيرًا ما يؤدي إلى فقدان الشعور بالمكان؛ حالة من التشوُّش، تتحول تدريجيًّا إلى نوع من الارتباك.

تجولت أيضًا في أرجاء مدينة "كيوتو"، إلى أن وصلت ذات يوم إلى حديقة معبد «ريانيه»[8]. تأملت كتل الحجارة المتفرقة فوق سطح المعبد.. أعرفها من آلاف الصور، التي تتراءى لي عندما أتخيل جزر بحر اليابان، وحصاه المموجة.

8- معبد بوذي شهير يقع في شمال غرب مدينة كيوتو. باليابان. (الناشر)

وهناك سألت نفسي: "ماذا أفعل هنا؟".

كررت ذلك السؤال مرة أخرى، بعدما تجولت في أنحاء مدينة "كاماكورا". وقفت أمام قبر "ياسوجيرو أوزو"[9]، الذي طالما غمرتني أفلامه بالراحة والسكينة. تساءلت: «ماذا أفعل هنا؟» وإذا بي أجد فوق القبر لافتة مكتوبًا عليها «مو»، بمعنى: "لا شيء"، وكأنها إجابة عن سؤالي. وحينها، أدركت أنني وقفت في "كاماكورا" أمام «اللاشيء".

وفي صباح يوم ما، دخلت حمَّام المعبد في „نارا". وفي تلك اللحظة، اجتاحنيً إحساسٌ غريب؛ شعرت أن اليابان قد صارت موطني، بمجرد وصولي إلى تلك الجزيرة.

يصف «تانيزاكي» في مديحه لحمّام المعبد، تلك الحوائط التي نُصِبت بحبَّات الخشب الرقيقة، وذلك الباب الجرَّار ذا القضبان الخشبية، المُغطاه بأوراق رقيقة، نافذة للهواء، تسمح لانعكاس غير لامع أن يتسلل إلى الداخل.

لن أدَّعي، أنني أستحضر الآن تلك التفاصيل أمام عينيّ. كل ما أتذكره، هو أن الشفق الذي أقسم به «تانيزاكي»، كان بالفعل يسود الأنحاء، ويعُم الأرجاء. هذا الشفق يا سادة، هو ما رحَّب بي

9- مخرج ياباني يعتبر من أهم المخرجين في اليابان والعالم. ولد في طوكيو عام 1903 وتوفي عام 1963. ومن أهم أفلامه (قصة طوكيو. (الناشر)

وأعادني إلى الوجود مرة أخرى.. إلى هذا المكان.. إلى الحياة.. وكأنني ضيف وصل إليها، بعد أسابيع من الترحال.

شعرت بالوصول وبالترحاب. فذلك الحمَّام في "نارا" لم يكن فقط ساكنًا، بل أيضًا مُحرِّر. ولم يكن فقط ملاذًا، بل أيضًا ملجأ. فقد كان، في تلك الساعة من الصباح، مكانًا مختلفًا عن كل الأمكنة.. عن كل ما هو «مكان». صرت -كما يقولون- مطلقًا، غير مقيد، تتغمدني طاقة هائلة.. فالمكان ألهمني.

نعم، كانت توجد روح في ذلك المكان الخالي. قال عنها «تانيزاكي»، إنها نشرت «السلام»: صنعت لنا قدميْن.. جعلتنا نقفز.. خلقت روحًا من الشغب والتحرر.. إنها روح مسحورة.

و»إن كان لا بد أن نذكر عيبًا في ذلك المكان»، فلا يجد «تانيزاكي»، سوى المسافة البعيدة التي تفصل بين الحمَّام والمبنى الرئيسي، «مما يزيد من احتمالية الإصابة بالبرد، خاصة في فصل الشتاء». ولكني كنت مُحصَّنًا ضد أدوار البرد، بل وضد الحرائق أيضًا. فإن احترق ذلك البيت الخشبي وأنا بداخله، سأخرج منه دون أن يصيبني أي مكروه.

هل هذه محض أوهام؟ أم هل هي آثار تلك الروح المسحورة؟

يرى «تانيزاكي»، أن هذا المكان هو أفضل بُقعة على وجه

الأرض، يمكن فيها أن «نستمع إلى نقيق الحشرات، وزقزقة العصافير، ونستمتع بليالي القمر المكتمل، وبجمال الفصول الأربعة".

هل نبعث أشعار الهايكو[10] القدماء من مكان خالٍ كهذا؟ ساكنٍ كهذا؟

منذ ذلك الصباح في معبد "نارا" -قبل أكثر من عشرين عامًا- صار بيت الخلاء يرافقني، كـ"فكرة»، بغض النظر عن كونه «مكانًا".. أو بمعنى أدق: صار "موضوعًا".. أو إذا أردنا أن نعود إلى أصل المعنى في اللغة الإغريقية القديمة: صار «إشكالية».. إشكالية ساحرة.

فبيت الخلاء هو الجزيرة، واللغة هي السفينة، أو القارب، أو الزورق الصغير، الذي يُبحِر حولها ويحاصرها بالسرد.

لا أنكر أن الشفق في معبد "نارا»، هو ما ألهبني، وألهمني لكتابة هذه الخواطر، وليس الظل، الذي يدور حوله كتاب «تانيزاكي». فالشمس لم تسطع هناك، ولم يضئ أي نور صناعي، وكأن تلك الحجرة الصغيرة تغمدها ضوء خافت، أو ظلام لامع.

ذلك الظلام اللامع، هو ما أثار مكنوناتي، ولمس أعماقي،

10- شعر الهايكو هو واحد من أهم أشكال الشعر الياباني. وهو عبارة عن قصيدة قصيرة ويتصف بالبساطة الخادعة. (الناشر)

وألهبني كي أفعل شيئًا ما.

ماذا أردت أن تفعل؟

لا شيء بالتحديد. أردت فقط أن أتَّخِذ موقفًا ما، أو أن أشد الرحال إلى وجهة ما، أو أن أظل في مكاني هذا وأفعل شيئًا ما في التو واللحظة.

ماذا أردت أن تفعل؟

شيئًا جميلًا.. شيئًا خلابًا.. شيئًا يتوافق مع حميمية ذلك الضوء الخافت، الذي ظهر لي وأنا في ذلك الحمَّام الصغير في "نارا".. كان مركزًا وخالصًا.

استرجعت مع ذلك الضوء سنوات الترحال على متن القطارات، وتذكرت مراحيضها، التي كنت أرى عبر حُفَرها قضبان السكة الحديد، وهي تهرع في اتجاه الخلف. كنت أتأمل الحصى السوداء في أرصفة المحطات. ومع توقف القطار، تتغيَّر الأشياء التي أراها أسفل مني؛ فبدلًا من القضبان، وتلك التفاصيل الأخرى، لا أرى سوى أرض من الطين، تميل حمرتها إلى الصفار، ويشع منها بريقٌ لامعٌ، لا يمكن أن أنساه.

تذكرت أيضًا.. كلا، بل أتذكر الآن، أنني لم أوفِ حمَّامات الطائرات حقها. ذات يوم، كنت -بلا أدنى مبالغة- المسافر الوحيد على متن طائرة صغيرة في رحلة من موسكو إلى برلين

الشرقية. دخلت الحمَّام، ووجدت نافذة صغيرة وعالية، رأيت عبرها القمر وبعض النجوم التي تنظر إلى أسفل؛ إليّ أنا. ظل رأسي مرفوعًا، وكنت على أتم الاستعداد لأن أظل هكذا على مدار رحلتي الطويلة، متأملًا تلك الصورة البديعة.

فقط بسبب حمَّام «نارا»، تسنى لي أن أعايش اليابان. فاليوم، أستطيع أن أقول بالفم الملآن: «لقد زرت الشرق الأقصى». فمنذ أن وطأت بقدمي على عتبة ذلك الحمَّام، تخلصت على الفور من شعوري بالغُمة، الذي صاحبني على مدار تلك الرحلة. حوَّلني ضوء الشفق المركز إلى شخصٍ خالِي البال. ولم تقتصر تلك الغفلة على اللحظات التي قضيتها في حمَّام المعبد، بل لازمتني بعد ذلك لبعض الوقت.

وهكذا رُزقت بلحظات من الطيش.. من الغفلة والطيش.. فما أجملهما!

لم يتعارض ذلك مع رغبتي في أن أقطع وعدًا لهذا المكان، الذي غمرني بمشاعر الراحة.. أردت أن أقطع وعدًا لحمَّام المعبد.

ماذا وعدته؟

وعدته أنني إذا قابلت شريكة حياتي الطائشة، فسآتي بها إلى «نارا» في شهر العسل. لم يساورني أي شك في لقائها، فقد كانت تلك الفانتازيا تحوم في رأسي آنذاك.

والآن، سأحكي عن أرض طينية، تميل حمرتها إلى الصفار. كنت أتأملها عبر ثُقب خشبي. لماذا شعرت أنها بعيدة عني؟ ولماذا أتى إليّ شعاعها من الأعماق الدفينة؟

لأنني لم أتأملها من داخل أحد القطارات، بل من مكان آخر في اليابان؛ تأملتها عبر ثقب من تحتي، بينما وقفت فوق ممر خشبي، في الطابق الأول من فندق صغير في «ميتسوشيما»، المطلة على بحر الشمال، حيثما مكثت لعدة أيام. وكانت حالة الغفلة والطيش لا تزال تصاحبني بعد عدة أسابيع. كنت أستلقي على بطني في البلكون، وأتأمل عبر أي ثقب خشبي كل ما تقع عليه عيناي أسفل مني، مثل الأرض الطينية، والحصى، وحبات الرمل، وأغطية زجاجات النبيذ. كانت كل تلك التفاصيل في مرأى بصري، يحيطها بريق لامع.

حتى في منزل جدي، قبل ستة عقود، كنت أستلقي على بطني في ذلك الممر الطويل، الذي يفصل بين غرفة المعيشة والحمَّام. أظل أحملق وأحملق عبر تشققات الخشب، متأملًا حظيرة الدجاج. لم يعكس الأسفلت أي بريق. ولكن حبَّات الذرة المتناثرة كانت تلمع من وقت لآخر، فتتسلل من بينها درجات مختلفة من الصفار. كنت أراقبها وهي تتبعثر، مع دقات مناقير الدجاج على الأسفلت. لم يكن يوجد أثرٌ للبشر، وكأنهم هجروا تلك الساحة. حتى المقشة تحولت إلى غصن خشبي بلا قيمة.

والآن، سأُصَرِّح بالسؤال الذي طرحته على نفسي في الخفاء أثناء الكتابة: لماذا ظللت أُنَبِّش عن بيوت الخلاء، على مدار حياتي، وفي مختلف أنحاء العالم، دون الرغبة في قضاء حاجتي؟ إن لم يكن ذلك نوعًا من الهروب من المجتمع، فهل كان تعبيرًا عن النفور منه؟ هل يمكن أن أسميه سأمًا، أو ضجرًا اجتماعيًّا؟

فالقيام من بين صفوف الآخرين، والانسحاب بعيدًا عنهم، والانعطاف عند الزوايا، بل وربما صعود عدة سلالم، لكي أهرب إلي بيت الخلاء.. هل هذا السلوك يكشف عن شخص غير اجتماعي؟

نعم، فهذه كانت -بل وما زالت- الحقيقة، التي لا يمكن إغفالها. ولكنها تسري فقط على اللحظات الأولى؛ في وهلة القيام بفظاظة، دون كلمة واحدة، ثم الانسحاب بعيدًا. أما في أثناء التوجه إلى بيت الخلاء، تتغير الأوضاع، وتتعدد معاني كل ما هو أحادي المعنى. أتنفس الصعداء عندما أغلق الباب بالترباس. أقول لنفسي: "أخيرًا صرت وحدي!". وسرعان ما يصبح السكون والخلاء مصدرًا للارتياح. بل ويتزايد ذلك الشعور، عندما تصاحبه أصوات العالم الخارجي: الرياح، وهدير الأنهار، وأصوات القطارات التي تمر بالمنطقة، وشاحنات النقل، والترام، وصَفير إنذار سيارات الشرطة، أو الإسعاف.

تصل إليّ أصوات هؤلاء، الذين كنت معهم. أسمع ضجيجهم،

وضحكاتهم، وثرثرتهم، بعد أن اخترقت الحوائط والأبواب. ليست جهورية، بل مريحة. أستعذب وقعها على مسامعي، فأنساق إليها بعد مرور بعض الوقت. أحاول أن أتحمَّلها، وأن أستمتع بها في الوقت نفسه. فمن بيت الخلاء، أشعر بالامتنان تجاه الآخرين، وتجاه تلك الضوضاء، وذلك الصخب.. أجدني أعود إليهم، بعدما هربت منهم.

في السنوات والعقود التي تلت زيارتي لليابان، استثمرت الأوقات التي قضيتها في بيوت الخلاء، في سبيل إجراء بعض «الدراسات الاجتماعية». لم أكن معنيًّا بلافتات بيوت الخلاء، أو رسومها، أو ما شابه ذلك. لا أنكر أنني كنت أقرأها، وألتفت إليها -فكيف يمكن أن أغفلها؟- ولكني لم ولن أنغمس فيها.

ولكن ذلك لا يتعارض مع أنني -حتى في المراحيض العمومية- دائمًا ما أجد نفسي أنظر، وأفكر، وأتأمل، وأتخيل، وأتصور.

في فرنسا، البلد الذي أقطن فيه منذ فترة طويلة، ظل التدخين ممنوعًا في المباني العامة، والكافيهات، والبارات، لأعوام مديدة. ولهذا، نجد في بيوت الخلاء القديمة، بعض التفاصيل التي يمكن أن نفحصها في إطار علم الآثار. ففي بعض تلك الحمَّامات، توجد بعض البقع فوق صندوق الطرد، أو فوق حامل بكرة المناديل، لأن المدخنين كانوا يتركون عليها سجائرهم الموقدة.

كثيرًا ما تتراءى لي تلك البقع، وكأنها أشكالٌ فنية. فأنغمس فيها، وأتمعنها بكل ما أوتيت من مقدرة؛ وهو الدور الذي فرضته على نفسي كأحد أفراد المجتمع. تختلف تلك الأشكال الفنية من حمَّام لآخر. أجدها ملحمية أحيانًا، ودرامية أحيانًا أخرى. ولكني لا أستطيع أن أقرأها، ولا أقدر على تفسيرها. على عكس الآثار التي أجدها في طين الغابات، أو طمي الأنهار؛ آثار من ضلوا الطريق، وآثار العراك والشجار، وآثار الحيرة. ففي الهواء الطلق، وفي رحاب الطبيعة، دائمًا ما أنجذب إلى قراءة وتفسير آثار البشر والحيوانات.

أما عن آثار الجمر فوق صندوق الطرد، وحامل بكرة المناديل، فهي لا تحتاج إلى قراءة؛ سواء كانت متفرقة أو مركزة.. باهتة أو ظاهرة. ولكنها تطلق العنان لمُخَيلتي، التي ليس لها حدود. فمُخَيِّلتي لا تحتاج إلى أن تُشَكِّل حكاية محددة. إنها حرة، غير مُقَيَّدة، تطلق العنان للعديد والعديد من الحكايات.

أتأمل تلك الأشكال الفنية، وأطلق العنان لمخيلتي، دون أن أتساءل عما حدث في تلك الحمَّامات. ولكني أنجذب إلى تلك الأشكال الملحمية والدرامية. أتفحصها، فتتسلل إلى بصيرتي، وتترك بداخلي أثرًا على نفس ذلك القدر من الملحمية والدرامية. يالي حقًّا من مُستكشِف نادر! إنني حقًّا كائن غريب في هذا المجتمع. أُسَخِّر خيالي للمنفعة العامة، وخدمة البشرية. أليس

كذلك؟

حالما ينغلق باب بيت الخلاء من خلفي، أتحول إلى مُعايِن. أكتشف داخل كل حمَّام نظامًا محددًا للأشكال؛ نظامًا هندسيًّا. فبمجرد دخولي إلى بيت الخلاء، أبدأ في إدراك كل ما هو حولي بعيون المُسكتشِف، فتتجلى لي جميع الأشكال الهندسية؛ الدائرية، والبيضاوية، والأسطوانية، والمخروطية، والإهليجية، والهرمية، والجذع هرمية، والجذع مخروطية، والمستطيلة، والمماسة، والجزئية، والمنحرفة.

فبيت الخلاء في حد ذاته مكانٌ هندسي؛ هكذا يتعين علينا إدراكه، ونقله إلى الآخرين. وبما أنني المهندس الخاص بهذا المكان، أخذت على عاتقي، أن أؤدي دوري على أكمل وجه، من أجل خدمة البشرية، أليس كذلك؟ (أعلم أنني أميل إلى السخرية، على الأقل في كتاباتي).

حسنًا إذًا، بعيدًا عن السخرية.. تتراءى لي أحداث المكان، تمامًا مثلما تقع عيناي على الموضع الهندسي لمقعد المرحاض، وصندوق الطرد، وزِر الطرد، والمواسير، والحوض، والصنبور، ثم تتخطاهم عيناي، لتشمل كل ما هو ضروري ومفيد، ومهم داخل تلك الغرفة الصغيرة.

قرأت عددًا لا بأس به من الكتب، وتأملت العديد من الصور، استعدادًا لكتابة هذه الخواطر. ولكني لم أنقل أيًا من تلك القراءات والصور في سطوري هنا. فالدراسات التاريخية والعرقية حول بيوت الخلاء، لا تقدِّم سوى نبذة عامة. فهي تشرح كيف كانت بيوت الخلاء عمومية، ثم صارت أكثر خصوصية، وكيف لم يكن لها حُرمة آنذاك، قبل أن تتغير الأوضاع، وكيف تتنوع أشكالها من بلد إلى بلد، ومن شعب إلى شعب، ومن زمن إلى زمن.

تلك القراءات التاريخية والعرقية والاجتماعية تهدد تتبُّعي لذلك الأثر، لأنها تُقيِّد خيالي. لا أنكر أن الرسومات في الكتب المُصورَة، التي تعرض «الحمَّامات حول العالم»، مبهجة ومدهشة، فهي لا تستثني حتى مراحيض الفضاء الخارجي. ولكنها أيضًا موجِعة، عندما تتطرق إلى الأحياء الفقيرة والزنزانات. ولذلك، فهي لا تترك لي مجالًا، كي أطلق العنان لمخيلتي.

تجد في تلك الكتب صور الحمَّامات الخشبية، التي تُشيِّدها قبائل الهنود في «باناما»، فهي متصلة بالمحيط، ويمكن الوصول إليها عبر أرصفة خاصة. ولكن السُيَّاح، يسبحون بجوار بالوعات الصرف الصحي، دون أن يعوا ذلك. فتجدهم -دون أن ينتبهوا- يسلِّطون كاميراتهم من أسفل، عبر ذلك الثقب المخصص لقضاء الحاجة، لكي يلتقطوا صورة المشهد من أعلى. أما في ناميبيا، فتجد تلك الصور الملونة للحمَّامات ذات المكعبات الأسفلتية؛

يستخدمها الرجال والنساء معًا، ولا يوجد بها ستائر حاجِبة. وفي إفريقيا أيضًا، تجد صورة تلك الكابينة، التي تبعُد كل البُعد عن أي شكل من أشكال التحضر. ولكنها تُطِلُّ على مشهد أحد أكبر الكثبان الرملية، وأكثرها جمالًا؛ رمال ذات بريق ذهبي، يسطع مع نور الصباح وضوء المساء. أما عن نيوزيلندا، فصور بيوت الخلاء وحدها كفيلة، لكي تشعل بداخلك الرغبة في السفر إلى هناك. ففي إحدى المدن الصغيرة، صمم الفنان المعماري «فريدنسرايش هوندرتفاسر"[11] حمَّامًا، يمتزج فيه ألف لون ولون.. هذا نهجه. وفي هذا الصدد أتقدم له بالاعتذار عن آرائي السلبية حول تصميماته الفنية.

ألا أناقد نفسي هنا، بعد أن أبديت ملاحظاتي الهندسية؟

فليكن!

وفي هذا الصدد، تجدر الإشارة إلى أن تصميم هذا المرحاض العمومي في نيوزيلندا، هو آخر أعمال « هوندرتفاسر" قبل وفاته.

في أوج تتبع آثار بيوت الخلاء، التقطت صورًا لكل بيوت الخلاء، التي قصدتها في عالمنا الواسع؛ أماكن غريبة، وخلابة، وفاتنة،

11- من أشهر الفنانين المعماريين في أواخر القرن العشرين. له طابعه الخاص المميز في الرسم والمعمار. من مواليد النمسا عام 1928. وتوفي في أستراليا أوائل عام 2000. (الناشر)

وفاخرة.. وأخرى بدائية، وبائسة، ومهجورة. بعضها في الطابق الأخير من ناطحات السحاب، أو أبراج التلفزيون، بها نوافذ بانورامية، تشاهد من خلالها فضاءً واسعًا، بدءًا من حديقة «سنترال بارك»، وصولًا إلى تمثال الحرية، أو من منطقة «كوبا كابانا»، وتمثال المسيح الفادي، حتى «الفافيلا»؛ آخر الأحياء العشوائية البرازيلية. ومن داخل حمَّام فندق صغير في ألاسكا، ترى الأنهار الجليدية. ومن داخل حمَّام فندق صغير آخر، تتأمل نهر «يوكون»، تُحلِّق من فوقه طيور السنونو في ليلة صيفية. بينما تجد تيار المياه المُتأنِّي، يسرع فجأة، ليحطِّم قوارب الهنود الخشبية. أما عن مراحيض «البلقان»، فلا أريد أن أتطرق إليها. (حتى تلك الدراسة الإنثولوجية، التي تحمل عنوان «الحمَّامات حول العالم»، لم تتطرق إليها). ولكني لم أنزعج هناك من بيوت العناكب، والناموس، والذباب، ومكانس القش -التي تُستخدم بدلًا من الفُرَش- بل على النقيض.

أما عن بيوت الخلاء المترفة، فقد لاحظت أنها كثيرًا ما تكون بعيدة عن صخب العالم والحياة اليومية. عادة ما تكون في ساحة فسيحة، أسفل المطاعم أو غرف الاجتماعات بطابق أو اثنين. تمشي عبر باب، لتصل إلى آخر. تصاحبك موسيقى صادحة في أرجاء المكان، ولكنك لم تصل إلى وجهتك بعد. وعندما تصل أخيرًا، تجد نفسك في "اللامكان"؛ لا تسمع أي صدى من أصداء الحياة، ولا تصل إليك الأصوات، التي كنت جزءًا منها، قبل وصولك.

بيوت الخلاء هذه أشبه بسراديب الموتى، وكأنها متاهة؛ حجرات كثيرة، متصلة ببعضها عبر أبواب داخلية؛ كلما تفتح بابًا، تجد نفسك في حجرة جديدة.

تأتيني تلك المتاهة في منامي بين الحين والآخر. فأرى في بيتي حجرات ساكنة، ومنيرة، ومفروشة بأفخم الأثاث. أدخلها واحدة تلو الأخرى.. كل غرفة أكثر فخامة من الأخرى.. كل غرفة خاوية تمامًا مثل الأخرى.. وحدي أنا مالك هذا البيت.. وتلك الغرف الفخمة ظلت فارغة هكذا منذ الأزل، تنتظر منِّي أن أستخدمها وأنتفع بها.

إن بيوت الخلاء التي أحكي عنها هنا، لها خصوصيتها وغرابتها. أتذكر بعضًا منها، ولكن دون أن أستحضر تفاصيل مكانها، وخصائصها الهندسية. وأنا أريد في هذه الخواطر، أن أقدم «معيارًا مثاليًّا» في وصف بيوت الخلاء.

مثال بسيط: ذات يوم، كنت في بلد غريب -لا أتذكر أين بالتحديد- وعندما خرجت من أحد تلك الحمَّامات مجهولة الهوية، قابلت أحد قُرَّائي على عتبة الباب. كان هو أيضًا سائحًا، وبدا سعيدًا بلقائي.

منذ بضعة أسابيع، كنت في بلدة "كاشكايش"، المطلة على

المحيط الأطلنطي بالبرتغال. ذهبت إلى حديقة، وجلست على مقعد في ممر يؤدي إلى المراحيض العمومية. كنت أراقب المكان -كعادتي- بغرض بحثي استكشافي، كي أسمح للمكان والمحيط أن يتركا أثرًا في مكنوناتي. وبعد مرور بعض الوقت، فوجئت بموكب يمر من أمامي. لم أشاهد موكبًا كهذا في الشوارع العادية منذ زمن بعيد. كنت حقًّا أفتقد هذا المشهد! كنت حقًّا أحتاج إلى هذا الموكب من البشر! (يتبادر إلى ذهني الآن، بينما أكتب هذه السطور، أنني في حياتي لم أرَ موكبًا كهذا، إلا في أثناء احتفالات القُدَّاس بالكنيسة؛ حيث يتوجه الموكب إلى المحراب، ثم يعود إلى المقاعد مرة أخرى).

نعم، هكذا كان حال بيت الخلاء في «كاشكايش»: رأيت موكبًا من البشر، يذهبون إلى الحمَّام ثم يخرجون منه، دون أن تبدو عليهم الرغبة في قضاء الحاجة. لا أحكي ذلك من منظور المتفرج، لأنني نهضت من مكاني، وانسقت مع المارة، حتى صرت جزءًا من هذا الموكب؛ صرت واحدًا من هؤلاء؛ المُسِنين، والأطفال المتهربين من المدرسة، ومُتحدِّي الإعاقة، وسكان المدينة، والغرباء عنها، والأرامل، والجياع، وسيدات البيوت، وحتى اللصوص.

وعلى عكس موكب الكنيسة، كان المارة في هذا الموكب يُحَيّون بعضهم بعضًا، بطريقة أو بأخرى، جهرًا أو صمتًا بأعينهم، دون أي دوافع خفية. ففي تلك اللحظات المعدودة، كنا سربًا من

الطيور النادرة.

سألت الآخرين عن تجاربهم مع بيوت الخلاء «لأغراض بحثية».. كلا، لم أسألهم، بل تبادلت معهم أطراف الحديث. وما حكوه لي، أكَّد أفكاري ووطَّدها. هناك من حكى عن جبينه، وهو يتكئ على حائط الحمَّام في الغربة. وهناك من حكى عن الحمَّام، الذي كان يهرب إليه في فترة المراهقة، كي يُدخِّن سيجارة. وهناك من حكى عن الحمَّام، الذي تطُل نافذته على الفضاء، الذي شهد أول قصة حب له. وهناك من حكى عن حمَّام بيت جده، الذي نشأ فيه كيتيم -أو كنصف يتيم- حيث كان يحدِّق عبر نافذته في الفندق المقابل له لساعات، يراقب ظلال النزلاء داخل الحجرات البعيدة. يستوقفني الآن، أن كل هذه القصص، تعود إلى الماضي البعيد؛ ويعود أكثرها إلى فترة المراهقة، لا الطفولة. من المدهش أنني لم أستمع إلى أي قصة في فترات عمرية لاحقة، اللهم إلا قصة واحدة فقط، حكاها لي شخص عن والدته العجوز، التي اعتادت أن تقضي حاجتها في الخلاء، في الهواء الطلق. كانت كل مرة تختار مكانًا خاصًّا، جميلًا، حبذا لو كان يُطِل على مشهد خلَّاب.

وبينما أكتب سطوري هذه، أستحضر الآن صورة متناقضة تمامًا مع القالب، الذي أردت أن أضع فيه بيوت الخلاء في هذه الخواطر. إنها صورة لفتاة صغيرة، دخلت الحمَّام، لتلقى حتفها هناك، بسبب شظية اخترقت الحائط. كان ذلك في مطلع عام

1999، في أثناء الحرب بين غرب أوروبا ويوغوسلافيا الاتحادية. ماتت الصغيرة في بيتها في مدينة «باتاينيكا»، شمال غرب «بلجراد».

تراودني صورة أخرى، ولا أعلم إن كانت مناقضة لإطار هذه الخواطر، أم لا: ذات يوم، دخل رجل حمَّام السيدات سهوًا. فالتقى هناك بامرأة جميلة -أو ربما هي التي دخلت حمَّام الرجال- على أي حال، لم يضاجعها في بيت الخلاء، ولكن لقاءهما هناك تطور بعد ذلك شيئًا فشيئًا، حتى تحوَّل إلى قصة حب كبيرة، تغلَّبت على عدة عوائق. إنها صورة أستحضرها من أحد الأفلام، التي تدور أحداثها في المستقبل؛ فيلم كئيب، باستثناء هذا الخط الدرامي.

في أثناء كتابة هذه الخواطر، قصدت منطقة خاوية في فرنسا، بين جزيرة «إل دو فرانس» و«نورماندي»، في منطقة متساوية البُعد بين المتروبوليتان والبحر. كتبتها في الفترة الأكثر كآبة من العام؛ بدءًا من الأسبوع الثاني من ديسمبر، وحتى 31 ديسمبر 2011؛ أي اليوم!

كل يوم، قبل أن أشرع في الكتابة، وبعد أن أفرغ منها، أتمشى في غابات خالية من أوراق الشجر، وسط حقول محصودة، تمتد لبضعة أميال. في الماضي، كانت تلك المنطقة مخزنًا لمحاصيل البلاط الملكي.

دائمًا ما يحِل الظلام مبكرًا. حتى في وقت النهار، أجد الأفق يتخلله ضوء كئيب. ولكن حالما تسطع الشمس، حتى ولو لساعة واحدة، أكتشف أنه لا يوجد بريق أكثر عذوبة من ضوء ديسمبر. إنه ضوء أفقي، يُخفِّف من درجات الأزرق والأخضر، ويعكس لمعانًا وسط الأعشاب في الحقول. «القليل من الشمس»: مصطلح أقرأه عند متابعة نشرة الطقس في جريدة «لو باريزيان»: الجريدة اليومية الوحيدة، التي أواظب على شرائها. وكأنها تنعي المواطنين، بسبب السحب الكثيفة، التي تكسو الأفق، منذ الصباح وحتى المساء. ولكنه محض هراء، فكل لحظة في حضرة الشمس ليست بـ»قليلة».

أما الأمطار المزمنة، التي تستمر على مدار اليوم، فهي تُحوِّل الحقول والمراعي إلى بقع طينية. ولكني لا أبتئس، فبفضل البوت المطاطي، يمكنني أن أتمشى على مهل، وأخوض في الوحل بابتسامة عريضة. إنها حقًّا متعة، خاصة في الظلام، عندما لا تشعر خطواتي إلا بالبِرَك الضحلة. لم أرتدِ هذا البوت منذ أيام مراعي البقر، وكُلِّي رغبة في أن أشدو في مديحه.

وعلى ذكر البوت: عندما تساقطت الأمطار بغزارة في الليالي الأخيرة من العام، كانت تنهمر، وتصطدم بالأرض حول بيتي النائي، وكأنها ترتدي البوت: في البداية تتساقط على مهلٍ، ثم تزداد تدريجيًّا، حتى تقرع على الأرض بانتظام طوال الليل. أما

عن الثلج، فلم ينزل، ولم أفتقده.

وبينما أتجول عبر الأراضي الخضراء الشاسعة، أشعر بالألوان مع انعكاس بريق الظلام، فتتجلَّى أمامي الأشكال والهيئات، وكأنني أُشكِّل جيشًا خاصًا بي. بالكاد لم أقابل أحدًا في تلك الأسابيع، اللهم إلا الصيادين. دائمًا ما كنت أجد -على الأقل- ثلاثة منهم، يرتدون صُدرات صفراء، تضيء في الظلام. ولكني لا أعتبر رؤيتهم لقاءً مع البشر. كما أنني أبدًا لا أستعذب أصوات إطلاق النار، التي تُدوِّي باستمرار داخل الغابة.

بالكاد لا أجد أحدًا في القرى المتفرقة داخل هذه الغابة. وعندما أنظر عبر نافذة بيتي، أجد امرأة عجوزًا، متكئة على عُكَّازها بلا حراك. وفي بار القرية، الذي أصل إليه سيرًا، لا أجد سوى سائق الشاحنة. ذات مرة، نصحه النادل -الوحيد في المكان- أن يشاهد التلفاز، لأنه أمضى حياته كلها على كرسي خلف عجلة القيادة، فرد عليه قائلًا: "والآن، لن أضع نفسي على كرسي أمام شاشة التلفاز".

لذا أستطيع أن أجزم، بأنني -تقريبًا- لم أقابل أحدًا في فترة الكتابة، ولكني أُقابل عددًا لا بأس به من سُكَّان الطبيعة: أشعر ببرج إحدى الكنائس، التي تبلغ من العمر ألف عام، يرفع لي ذراعه، ويُلقي عليّ التحية. وأجد طيورًا تزقزق، وترفرف نحو السماء من فوقي؛ سربًا من العصافير يُحلِق عاليًا فوق الحقول،

ويخلق أشكالًا متنوعة. وأجد الديك الرومي يرقص أمام البيت، وكأنه المسؤول عنه، وأتأمل الريش المُلَوَّن في ذيله. أرى الخنازير البرية مجتمعة ليلًا، بعد أن نجوا من يوم صيد جديد. أسمع نخيرهم عند الشجيرات، بجوار الطريق مباشرةً؛ في آخر مكان يمكن أن يخطر ببال الصيادين. أراهم وسط الظلمة من ظهورهم، يتهامسون ويهزُّون مؤخراتهم. أشاهد سرب البوم مُحلِّقًا في النهار، بعيدًا عن مخبئه، صامتًا كعادته. أتأمل وجهه الأفطس، وريشه الأبيض كالجحور الحجرية، التي يرفرف من فوقها. وفي الليل، أجد مجموعة أخرى من البوم، فأنصِت إلى نعيقهم المستمر، الذي يظل رتيبًا طوال الليل. ومع مطلع الصباح، تتغير نغماته، فتتشكَّل من إيقاعين أو ثلاثة، كي ترد على صياح الديوك. هكذا يصدر البوم صوتًا مضادًّا لأصوات الديوك، حتى يكتسح نعيقها في النهاية. أضف إلى ذلك: زقاء الدجاج، وجؤار البقر، ونهيق الحمير، وزقزقة العصافير، ونعيق الغراب. أما عن النغمة الرئيسة، فهي من نصيب هديل الحمام البري، الذي يستبق أصوات الصقور.



بلبلة مزعجة؟

بل نغمات شافية. تدوم للحظات طويلة.

في صباح أحد الأيام، خرجت لبرهة كي أبري قلمي الرصاص. وعندما عدت إلى مكتبي في الطابق الأرضي، وجدت قنفدًا أسفل الطاولة. ظل هناك عدة أيام، يبرز أشواكه ويخفيها، كاشفًا أنفه الطويل، أو خرطومه. استضفته عندي بمنتهى العفوية. كان يُحرِّك أذنيه المستديرتين، ويرمقني بنظرات عينيه السوداوين. وفي إحدى الليالي المعتمة، كنت أتجول في أراضٍ ضحلة، وإذا بي فجأة أشعر ببومتين عملاقتين، تدوران حول رأسي، أو ربما كانتا على وشك ذلك. اقتربتا مني أكثر فأكثر، في سكون تام. لم تفزعا من صياحي، ولا من ضوء مصباحي، إلا بعدما لوَّحت به لفترة طويلة.. تُرى، ماذا أراد طائرا الليل؟

وفي اليوم التالي، بينما كنت أعبر من فوق بركة راكدة، غرزت قدمي في الطين، وأخذت تتعمق أكثر فأكثر، حتى وصل الطين إلى خصري. وفي اللحظة الأخيرة، أنقذت نفسي بقفزة إلى الناحية الأخرى.. لولا هذا الموقف، لما اكتملت القصة، التي أردت أن أستكمل كتابتها في بيتي.

اليوم هو آخر أيام عام 2011. كنت أتمشى صباحًا فوق سهل منحدر، وفجأة سمعت دوِّي إطلاق النار، ووجدت أمامي غزالة تركض هاربة، ثم واصلت قفزاتها الراكضة، بعدما نجت من الموت. تراءت لي، وكأنها جواد، يمتطيه فارس هندي. وفي نفس

المنحدر، وجدت القواقع، والحلزون، والدود، منتشرين في جميع أنحاء تلك المنطقة الضحلة. وعندما أمسكت ببعض تلك الحفريات، أذهلني وزنها الثقيل؛ على عكس القواقع والصدف المنتشرين في هذه الأيام. وقعت عيناي أيضًا على كمائن الصيادين في الغابات، بأشكالها الأسطوانية، والمكعبة، والمخروطية، والهرمية.

وفي سماء الليل الصافية، أخذت أراقب المجرَّات النجمية.. بدت لي كوكبة "ممسك الأعِّنة"[12] (أوريجا)، وكأنها رباعية أو خماسية الأضلاع. ثم تراءت لي كوكبة «ذات الكرسي»[13] (كاسيوبيا)، على شكل مثلثَيْن غير مكتمليْن، اشتد بريقهما أمام عينيّ. كما تأملت كوكبة «الجبَّار»[14] (أوريون)، سديم الشتاء. إنه حارس السماء، حتى وإن لم يكن في حوزته سوى سهم واحد، بل حتى وإن خلا حزامه من جميع أسلحة الصيد. بدت لي بعض النجوم متوازية. حتى في وضح النهار، أجد ذلك التوازي أيضًا، عبر الطرق الزراعية، والحقول، والغابات.

متوازية مع ماذا؟

مع الذهاب إلى بيت الخلاء. فعندما تقصد تلك الأماكن، تقف

12- هي كوكبة معروفة منذ القدم ومكونة من 6 أنجم. وتقع على يسار مجموعة الجبار. ويمكن رؤيتها في معظم فترات العام. إلا أن أفضل توقيت لرصدها في فصل الشتاء. (الناشر)

13- من أشهر أبراج نصف الكرة الأرضية الشمالي. ويظهر طوال العام. (الناشر)

14- كانت تعرف قديمًا بالجوزاء. تعد من كوكبات السماء الحديثة. ومن أشهر الكوكبات في الثقافات الإنسانية القديمة. (الناشر)

فجأة، وكأنك وصلت إلى مركز الأرض. لا تجد حولك سوى كرات ثلجية صغيرة، ومن تحتها مخلفات الأرانب. تتفتح الأزهار، وتجد الشجيرات الفِضِّية، متشابكة عند حواف الغابات، مثل الحروف العربية. ومن الطمي، تخرج أوراقٌ صغيرة، صفراء اللون، تنمو وتزدهر، حتى تتشكل آخر زهرة. فلا تجد من حولك سوى زهور اللؤلؤ، بعد أن كست سائر أنحاء أوروبا في فصل الصيف.

ذات يوم، قصدت حافة إحدى الغابات. كانت مدببة بأشجار الصنوبر، فبدت هيئتها مثلثة. تشتهر تلك الغابة بمقبرة صغيرة تدعى «مقبرة تيتو». وصلت إلى مكانها، الذي ظهر لي على الخريطة، ولكني لم أعثر عليها.

أين المقابر في هذه الغابة الصغيرة؟

وجدت أرنبًا قافزًا، فخطف أنظاري إليه. أخذَتْ عيناي تقفزان معه من أعلى إلى أسفل، حتى وقعتا على المقابر. لم أجد سوى لوحتيْن تذكاريتيْن من الحجر، كِدْت لا ألاحظهما من بين الأعشاب. قرأت النصوص المدونة على الحجريْن بسهولة. فالحجر الأول والأكبر، يُحيي ذكرى زوجين، لقيا حتفهما في منتصف القرن التاسع عشر. مكتوب عن المرأة: «زوجة صالحة وأم حنون". أما عن النص المدون في الحجر الأصغر، فقد كان تخليدًا لذكرى الرجل، الذي سُمِّيت تلك المقابر على اسمه: السيد «آرثر تيتو»، والذي رحل عن عالمنا في عام 1919. قرأت على الحجر العبارة

التالية: «ننعيه ببالغ الحزن والأسى».

"تيتو" هو كُنية الرجل المدفون في هذه المقبرة، وقد سُميَّت الغابة بأسرها على اسمه. من الطريف، أن السبب وراء زيارتي لهذا المكان، هو أن كلمة "têtu" بالفرنسية تعني «عنيد». فقد ساقني فضولي إلى هنا من الأساس، لكي أزور «مقبرة العنيد".

أدرك الآن، أنني نسيت أن أذكر أهم الأسباب، التي دفعتني إلى كتابة هذه الخواطر عن بيوت الخلاء؛ إنه ذلك التحول الفجائي؛ من حالة الصمت، إلى رجوع الكلمات، وعودة الكلام. أجده يتملك مني مرة بعد أخرى، بل ويتزايد كلما مضى العمر. يجتاحني في اللحظة التي ينغلق فيها الباب، وأصبح وحدي في خلوتي، مع المكان وهندسته، بعيدًا عن الآخرين.

فخارج بيت الخلاء، يتملكني الصمت والسكون. يتلاشى الكلام، وتختفي الكلمات. أفتقر إلى الثراء اللغوي. تصبح كلماتي مثل كلمات الآخرين. يجعلونني أصمت. أملُّ وأبتئس. لا أنبس ببنت شفة. والأسوأ، هو أن الكلمات لا تتدفق في قلبي، ولا في رئتيّ، ولا في دمي، ولا في أي مكان آخر داخل أعماقي. أقول برتابة، بصوت يكاد يكون غير مسموع: «أستأذنكم للحظات!»، ثم أنسحب إلى بيت الخلاء. وحينها ينتعش بداخلي منبع الكلام والكلمات، حتى وإن ظللت بعدها صامتًا.

تنزل من سلالم البيت، تُغلِق الباب، ثم الترباس، فتتدفق الكلمات؛ عنيدة تارة.. وعميقة تارة أخرى.. أو ربما ترانيم إنجيلية.. أو وحيٌ ربانيّ.. كلمات منادية.. مطمئنة.. تتدفق خلف بعضها.. مثل العبارات التالية:

"في ذروة الاحتياج، نسألك الرحمة، يا خالق الجلد والعظام.. من الرماد إلى الرماد.. ستصير خمرًا.. نعم، هو كذلك.. وماذا بعد؟ مساء اليوم وإلا فلا! رواية "الصخب والعنف"[15].. لماذا تركتي‌نني؟ كلمات جديدة، سأستيقظ بكلمات جديدة، بصدر رحب، وسأمضي في حياتي قدمًا، كلمة بعد كلمة، هكذا سأمضي في حياتي قدمًا.. رجل وامرأة.. امرأة ورجل.. أبدًا لن أصبح مغنيًا في يوم من الأيام.. أغنية "Good Golly, Miss Molly"[16].. "هيا، اقبلوني واستقبلوني".

الزعق، والعجيج، والضجيج، والصخب في الخارج، يتحول إلى همهمة البشر، وأصوات العالم الخارجي.

هيا! انهض! عُد إلى الآخرين! يا صاحب الكلمات.. يا أسير شهوة الكلام!

تحرر في فيكسين/ فرنسا، ديسمبر 2011

15- أشهر روايات الأديب الأمريكي وليام فوكنر. (الناشر)

16- أغنية روك آند رول شهيرة للمطرب الأمريكي "ليتل ريتشارد". صدرت عام 1958. (الناشر)



"لديّ في جعبتي بعض القصص حول الأماكن الساكنة بشكل عام، وبيوت الخلاء بشكل خاص. إنها قصصٌ مختلفة. سأحكيها الآن، فهي فريدة من نوعها، لا تتوازى ولا تتباين مع أي من القصص التي يمكن أن تسمعها في حياتك!"

هكذا يخبرنا بيتر هاندكه في كتابه الفريد "عن الخلاء والسكون".. يخبرنا عن بيوت الراحة؛ ويقصد بها بشكل مباشر الحمامات. يحكي لنا لا عن الفعل الذي يتم بالحمامات قطعًا، ولكنه يتكلم عنها كأماكن للتفكير والانعزال.

يقدم لنا هاندكه برؤيته الفلسفية، أحد أكثر المواضيع شخصية بتناول غير اعتيادي؛ تناول شديد الرهافة لمكان من غير المعتاد الكتابة عنه.

بيتر هاندكه: كاتب وروائي ومسرحي ومترجم نمساوي، ولد عام 1942، وفاز بجائزة نوبل للآداب 2019.

انطلقت شهرته عام 1966 مع نشر روايته الأولى، وأصبح نجمًا في الأوساط الأدبية المتحدثة بالألمانية مع نجاح مسرحياته خلال ستينيات القرن العشرين.

فاز هاندكه بالعديد من الجوائز الكبرى وأثار الجدل في العديد من المواقف والأوقات، وعلى مدى سنوات طويلة ظل يذهل محبي الأدب بأعماله التي تبرع في تصوير المشاعر الإنسانية وتبدع في مقاربة مكنونات العقول والقلوب.




ISBN 978-977-821-211-2
9 789778 212112